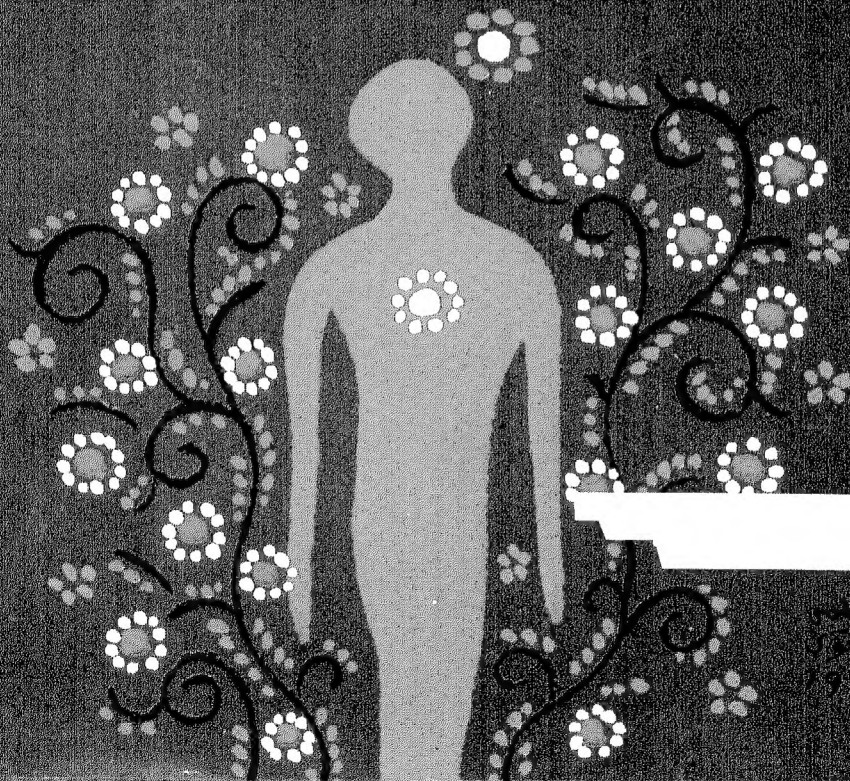


دار الشروق —

إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان

د. محمد فياض



الطبعة
الاولى
١٩٩٩

عَجَازُ آيَاتِ الْقُرْآنِ
فِي بَيَانِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما - تلفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د. محمد فياض

إِعْجَازُ آيَاتِ الْقُرْآنِ
فِي بَيَانِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ

دار الشروق —

1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أستهل حديثي هذا بالإجابة عن سؤال هام هو : لماذا هذا الكتاب ؟ فأقول إنني ، وعلى امتداد أكثر من نصف قرن من الزمان ، قد حباني الله بنعمة كبرى بصفتي طبيباً للنساء والحمل والولادة ، وذلك بأن أعيش في كل يوم - بل كل لحظة - إبداعه سبحانه وتعالى في معجزة الخلق البشري ، فتعودني المرأة وقد بدأ حملها ، وبالأجهزة الحديثة والعلم المتقدم ، أتابع مسيرتها حتى تضع وليدها ، وأراقب تطورات الحمل لديها وجنينها ينمو من نطفة فعلاقة فمضغة فعظام ، حتى ينشأ نشأة بشرية خالصة . ومع كل مرحلة من مراحل هذا الحمل يظل لساني يلهج بالحمد ، وفؤادي يشتعل بالخشوع ، أمام قدرة الخالق جل جلاله ، وإعجازه البالغ ، وهو يوالى تصوير وتقويم الجنين الصغير ، حتى يكتمل إنساناً له كل مقومات الحياة .

وفي لحظة معينة خطر على بالي خاطر لطيف . . وهو لماذا لا أشرك معي قارئى العزيز في تذوق حلاوة هذا الإبداع ، ولمس ضخامة هذا الإعجاز . وإذا كان الله قد من على بنعمة هذا العلم ؛ فلماذا لا أسعى إلى توسيع نطاقه ونشره على غيرى من البشر ، لعل ذلك يعينهم على تعميق إيمانهم وترسيخ عقيدتهم بعظمة الخالق سبحانه وتعالى .

ولهذا كان هذا الكتاب .

وكان القرآن الكريم هو سندی الأوحد ، والمرجع الأساسى لى . فالإعجاز والإقناع فى كتاب الله العظيم علميان وعقليان ، يقدمان الحقائق والمشاهد الطبيعية كآيات لله تثبت وجوده وتؤكد ألوهيته . ولهذا كانت الدعوة فى القرآن الكريم واضحة وصريحة لكل البشر بأن يتدبروا ويتفكروا وينظروا فى هذه الآيات لتستريح

أفئدتهم وتهدا نفوسهم وتطمئن إلى قدرة الله وعظمته ، ورحمته أيضا . وفى يقينى أن تحقيق هذه الأهداف السامية يتأتى - بشكل خاص - حين التفكير والنظر فى كيفية الخلق البشرى . وإذا كنا نعيش عملية الخلق بكافة مراحلها وأطوارها ، فإن بيان القرآن الكريم عنها فى آياته يصبح بمثابة التوجيهات والتعليمات التى تقدمها الشركة الصانعة لجهاز أو آلة ، حتى يقرأها ويستنير بها مستعمل الجهاز .

* * *

وكمثال لدقة العنوان الذى اخترته لهذا الكتاب ، فإننى أتوقف بقارئى عند كلمة الخلق . فالخلق - فى اللغة - هو الإيجاد من العدم . وقد أشار سبحانه للخلق ببيانه فى القرآن الكريم أن الانسان أتى عليه فترة زمنية لم يكن فيها شيئا مذكورا : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١]

هنا أرجو - أيها القارئ العزيز - أن تلاحظ جمال التعبير الإلهى ودقته ، فهو تعالى لم يقل " لم يكن شيئا " وإنما قال ﴿ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ، أى أنه قد كان شيئا ولكن لا يكاد يذكر فى قلة الاهتمام والاحتفال به ، ولعمري إنها لقمة البلاغة فى البيان .

ثم انظر معى إلى إبداع الخالق فى الخلق . . حيث يتنوع البشر ويختلفون ، ويصبح كل فرد منهم مميزا عن الآخرين . صحيح أن الأصل واحد ، والناس لآدم ، وآدم من تراب ، ولكن شتان بين معادن الخير ومعادن الشر ، وشتان بين نوح وابنه ، وبين لوط وامراته . وسبحان الخالق البارئ المصور الذى أطلق عوامل الوراثة والاصطفاء لترسم الملامح والصفات ، وتحدد الطول والقصر . سبحانه عز من قائل ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢]

* * *

وقد وجهت اهتماما خاصا إلى محاولة معاونة قارئ هذا الكتاب على متابعة الموضوع دون الحاجة إلى تحمل مشقة البحث عن الآيات القرآنية التى أتعرض لذكرها فى المصحف ؛ لعلمى بمدى صعوبة هذا الأمر وعدم تيسره لمن ليس له إلمام

بجميع آيات الذكر الحكيم . ولذا فقد حرصت فى كل مرة على ذكر الآيات القرآنية
بنصها ورقمها وموقعها من السور ، فضلا عن تبويب موضوعى لبعض الآيات التى
تحدثت عن الخلق ، لعل ذلك يكون إحكاما لهدف أساسى عندى وهو أن يكون هذا
الكتاب فى النهاية مرجعا من المراجع ، إليه قد يعود الباحثون .

وفوق ذلك فقد ألزمت نفسى بأسس العلم الذى تعلمته من ممارستى الطويلة فى
مجالى الحمل والولادة ، مع المطابقة بينها وبين آيات القرآن الكريم . وصدرت فى
ذلك عن إيمان عميق لدى بأن ما نعلمه وما نمارسه يجب أن يتطابقا مع كل ما ذكره
الحق فى كتابه الكريم ، وفى الحديث النبوى الشريف ، وإلا كان علما ناقصا وغير
صحيح . . ذلك أنهما من وحى الله تعالى الذى خلق الإنسان وهو أعلم بخلقه
سبحانه .

ولست أدعى تبجرا فى الدين أو تفسير آى الذكر الحكيم ، لكننى أفخر بكونى
مسلمة يسكن الإيمان أعماقه ، ويزداد اقترابا من الله فى كل لحظة يعيش فيها إبداع
الخالق جل وعلا ويلمس إعجازه .

من هذا المنطلق - مسلحا بالعلم الحديث - فإننى أقرأ فى الآية (٦) من سورة الزمر
وصفا علميا مفصلا عن أطوار خلق الجنين فى قول الله تعالى ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ
أُمّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ . وأفهم من نص الآية - بحقائق العلم -
أن الجنين يمر فى أطوار من بعد أطوار وخلق من بعد خلق . لقد جعل الله الجنين
فى ظلمات ثلاث ، هى ظلمة الكيس الأمينوسى حول الجنين . . ثم ظلمة الرحم
وجداره . . ثم ظلمة جدار البطن ؛ وقد تكون هذه هى الظلمات الثلاث . والجنين
فى أول مراحلها يكون من ثلاث طبقات ، وجدار الرحم أيضا ثلاث طبقات . كل
هذه الظلمات ثلاث ، وكل منها يمكن أن تفسر الآية الكريمة .

* * *

وكان واضحا تمام الوضوح أمامى أننى أخوض حقلا ليس بالسهل . صحيح أن
الله قد وهبنى نعمة العلم والخبرة ، لكننى كنت أريد أن أقدم كل ما مارسته طوال
عمرى فى إطار إبداع الله سبحانه فى الخلق ، وكيفية بيان آيات القرآن لهذا

الإعجاز؛ وتلك مهمة صعبة بالفعل . لكن ما شجعنى على التوكل على الله فى إتمام هذا الكتاب ، أننى وجدت البعض قد سبقنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع ، كما أن هناك آخرين عاكفون على الكتابة فيه أيضا . كذلك فقد وجدت لدى البعض رؤى جديدة تحمل تفسيرات جديدة فى ضوء ما كشفه العلم الحديث . ولعل المفاجأة التى أسعدتنى حقا عند آخر زيارتى لبلد عربى شقيق أن وجدت واحدا من أبنائه النابغين قد ألف كتابا حول نفس الموضوع ، وأن عرفت أنه كان من بين الطلبة الذين درسوا الطب على يدي .

وتعميما لفائدة القارئ فقد حرصت على أن يكون لكل من سبقنى نصيب فى هذا الكتاب بالإشارة أو العرض أو التلخيص .

ويهمنى أيضا أن أعبر عن الشكر والتقدير البالغين للسيد LENART NILSSON مؤلف الكتاب الرائع A CHILD IS BORN ، والذى لم أتمالك نفسى إزاء روعة الصور الواردة فيه من الاستعانة ببعضها ، والتى بلغت دقتها الاقتراب تماما من حقيقة الأمر الذى يحدث داخل الرحم .

ويبقى أن أقدم الشكر لكل يد امتدت لى بالعون والمساعدة . وأول الشكر ومنتهاه لله سبحانه وتعالى . إننى أسجد لله عرفانا بفضلله وشكرا على نعمه الواسعة التى أسبغها على شخصى الضعيف ، فكان هذا الكتاب واحدا من نعمائه ، أتقرب به إليه طمعا فى مغفرته ورضوانه .

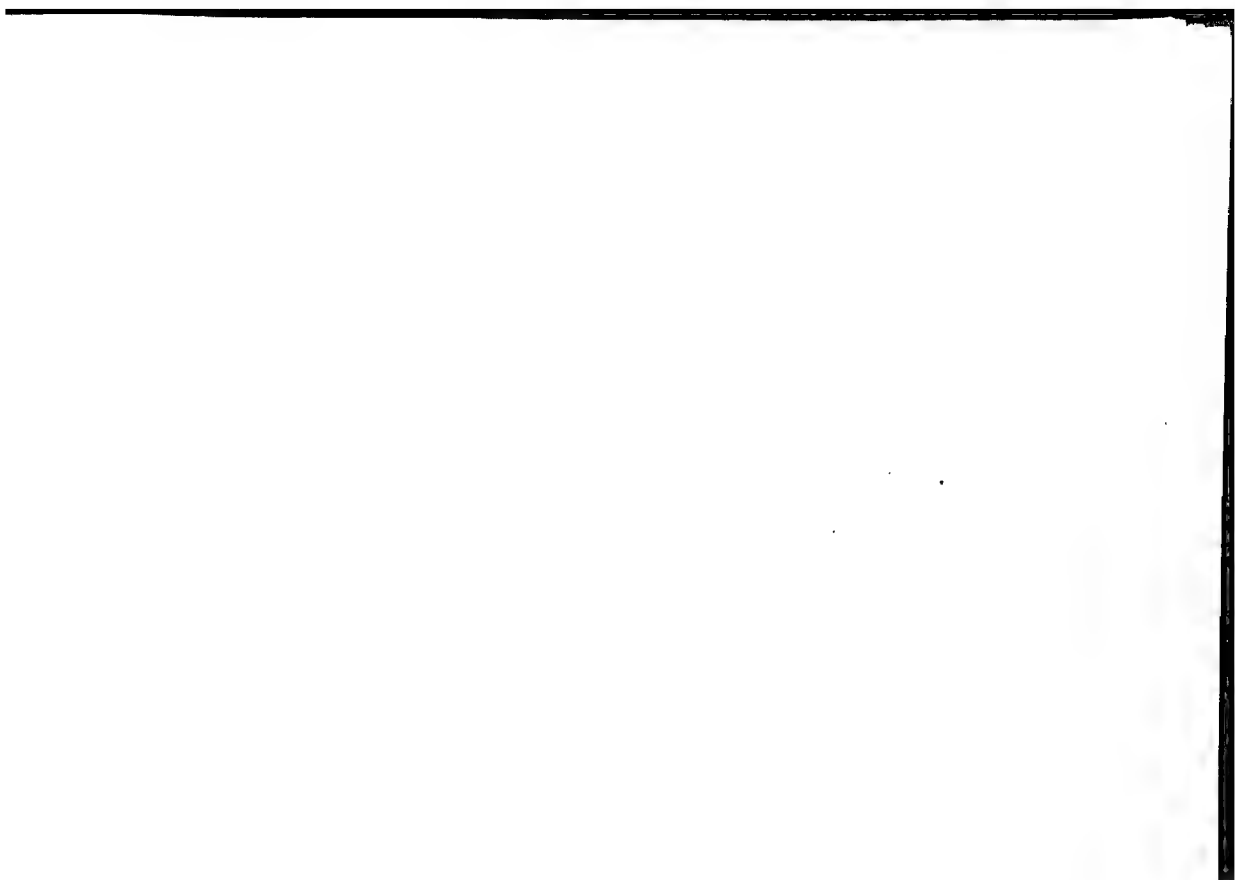
وتبقى بعد ذلك كلمات شكر ثلاث ، أولاها للأستاذ الدكتور محمد رأفت عثمان ، أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن بجامعة الأزهر ، الذى منحنى من وقته الثمين ما كان ضروريا ؛ لأن يراجع بعلمه الغزير كل ما احتواه هذا الكتاب من اجتهادات فقهية ودينية ولغوية ، فكانت له إضافته القيمة ، فله منى أبلغ الشكر والتقدير على جهده ، وله الشكر على كلمته الرقيقة فى تقديم هذا الكتاب .

أما كلمة الشكر الثانية فهي للفنان شريف تونى ، الذى أثرى بعمله الفنى هذا الكتاب .

وأما كلمة الشكر الثالثة فهي للأخ والصديق عزيز أحمد عزمى . إن لقائى بهذا الرجل يمثل نقطة تحول بارزة فى حياتى .
وفقنا الله ، والله من وراء القصد .

د. محمد فياض

ذى الحجة ١٤١٧ هـ - مايو ١٩٩٧



تقديم

القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل، المنزل على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله لهداية البشر وتنظيم أمور حياتهم، وتحقيق سعادتهم الدنيوية والأخروية، المعجز بأقصر آية منه.

وقد كتب العلماء والمفكرون في بيان إعجاز القرآن من ناحية أسلوبه في البلاغة وسمو كلماته، كما كتبوا في بيان إعجازه في إخباره بأمور بين أنها ستحدث، وقد حدثت كما أخبر القرآن الكريم، كما إخباره عندما انهزم الروم أمام الفرس بأن الدائرة ستدور على الفرس ويغلبهم الروم، وقد كان كما أخبر القرآن الكريم.

كما كتب العلماء عن إعجاز القرآن الكريم عندما يعرض لمجالات علمية أكدتها بحوث العلماء في العصر الحديث، وكان أحد هذه المجالات مجال خلق الإنسان ومراحل وأطوار هذا الخلق في أرحام الأمهات.

وقد اختار عالمنا الكبير الأستاذ الدكتور محمد فياض مجالاً تخصص فيه، وكان أحد علمائه المبرزين، فبذل جهده العلمي في إخراج هذا الكتاب الثرى يلقي فيه الأضواء العلمية التي تكشف وتبين الإعجاز القرآني في بيان خلق الإنسان، وعرض ذلك بأسلوب ينم عن إيمان كاتبه العميق بالخالق تبارك وتعالى، وطلاقة قدرته، وكمال إبداعه.

ندعو الله عز وجل أن يجزيه خير الجزاء على هذا الإسهام العلمي، وأن يجعله في ميزان حسناته، إنه سميع مجيب الدعاء.

دكتور محمد رأفت عثمان

أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن بجامعة الأزهر

7

الفصل الأول

بداية خلق الكون وخلق آدم وحواء

تمهيد

يدور هذا الكتاب حول موضوع جوهرى رئيسى ، هو كيفية إبداع الله جل جلاله فى الخلق ، وكيفية بيان هذا الإبداع والإعجاز فى محكم آيات القرآن الكريم . وكأئنا أراد الله أن يلجم ألسنة البشر الجاحدين ، فإذا به جل جلاله يوحى بهذا القرآن المحكم إلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) لينطق بهذا الإعجاز العلمى الفريد ، دون أن يكون قارئاً ولا صاحب خبرة علمية سابقة ، لا فى هذا المجال ولا فى غيره . وما دمنا نتحدث عن إبداع الخالق فى خلقه ، وعن إعجاز بيان القرآن الكريم لهذا الإبداع ، فخير ما نبدأ بالحديث عنه كيفية بداية خلق الكون ، ومن ثم خلق البشر بداية من آدم وحواء .



بداية خلق الكون

عن أبى هريرة قال ، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النون يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم - عليه السلام - بعد العصر من يوم الجمعة ، فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » . (شرح صحيح مسلم) نحن هنا أمام نص واضح يتحدث عن مراحل بداية الخلق بتفصيل تام ، عبر ستة أيام متساويات ، أو ستة أزمنة ، على اعتبار أن يوما عند ربك يختلف كلية عن الأيام المعلومة لنا فى هذه الحياة الدنيا .

ففى يوم السبت ، أى فى المدة الأولى ، فى الطور الأول ، خلق الله التربة ، أى الأرض الخام الأولى .

وفى يوم الأحد ، أى فى الطور الثانى ، خلق الله تعالى الجبال .

وفى يوم الاثنين ، أى فى الطور الثالث ، خلق الله تعالى الشجر أى كل ما ينبت على الأرض من شجر .

وفى يوم الثلاثاء ، أى فى الطور الرابع ، خلق الله تعالى «المكروه» وهو ما يقوم به المعاش ويصلح به التدبير كالحديد وغيره من جواهر الأرض .

وفى يوم الأربعاء ، أى فى الطور الخامس ، خلق الله تعالى «النون» أى الحيتان ، أى الأسماك والحيوانات البحرية .

وفى يوم الخميس ، أى فى الطور السادس ، خلق الله الدواب ، وهى كل ما يدب على الأرض من طير وحيوان .

وهنا اكتمل خلق الأرض، بجبالها، وشجرها، ومعادنها، وأسمائها،
وطيرها، وحيوانها، هكذا بدأ الخلق.

وفى يوم الجمعة، أى فى الطور السابع، فى آخر الخلق، فى آخر ساعة من
ساعات الجمعة، خلق الله تعالى آدم عليه السلام.

عن هذا اليوم، قال سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - عن أبى هريرة: «خير
يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج
منها، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة». (مسلم)

الخليفة فى الأرض

يحسن فى البداية أن نبين أن الله استخلف الإنسان فى الأرض بمعنى أن يرسي
قواعد العدل ويحكم بأحكام الله فيها.

وقد اختار الله آدم^(١) ليكون خليفته فى الأرض^(٢). لكنه قبل ذلك أكمل - عز

(١) آدم اسم مشتق من أديم الأرض . وتعدد الأحاديث الشريفة فى هذا الصدد ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم «كلكم لأدم وأدم من تراب» ، وقوله «إن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض» .

(٢) لعلماء الإسلام أربعة اتجاهات فيمن تكون عنه الخلافة :

* الاتجاه الأول : أن الخلافة تكون عن الله تعالى ، فيقال فى رئيس الدولة خليفة الله ، لأن رئيس الدولة يجب أن يقوم على رعاية حقوق الله فى خلقه ، واحتج صاحب هذا رأى بقول الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] .

* الاتجاه الثانى : وحكاه الإمام النووى فى كتابه «الأذكار» عن الإمام النبوى ، أنه لا يجوز أن يقال على أحد إنه خليفة الله ، إلا آدم وداود عليهما السلام . وذلك لقول الله سبحانه في حق آدم : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ، ولقوله سبحانه فى حق داود : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] .

* الاتجاه الثالث : وأجازه الزمخشري فى تفسيره (الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٤٤) أنه يجوز إطلاق اسم خليفة الله على سائر الأنبياء عليهم السلام .

* الاتجاه الرابع : وبه قال جمهور الفقهاء أى الغالبية من الفقهاء ، أنه لا يجوز أن يقال : خليفة الله ، ونسبوا قائل ذلك إلى الفجور ، وإنما يقال الخليفة بإطلاق ، أو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (تحرير الأحكام لابن جماعة - مخطوط بمكتبة الأزهر برقم (١٢٨١) رافعى ٢٧٥٠٠ من الورقة رقم ١٠ والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٥) . أما أنه لا يجوز أن يقال خليفة الله ؛ فلأنه إنما يكون الاستخلاف فى حال الموت أو الغيبة ، والله سبحانه وتعالى باق إلى الأبد =

وجل - خلق الأرض، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها . جعل جبالها شامخة شاهقة ، وأمطارها نازلة ، وأنهارها جارية ، وأشجارها نامية ، وأطيافها تعلو إلى السماء وتهوى إلى الأرض ، وحيوانها يجرى فى نواحيها ، وباطنها عامرا بالجواهر والدرر .

المطلوب الآن هو مخلوق يسود سيادة مباشرة على هذا كله . مخلوق فيه من صفات هذه الأرض ليتمكن من التفاعل مع ما فيها . وفيه من الصفات ما يؤهله لتلقى تشريعات الله عز وجل وإرساء قواعد الحق والعدل فى الأرض .

لتحقيق ذلك اتجهت إرادة الله سبحانه إلى خلق هذا النائب وهذا الخليفة . وبشر سبحانه الملائكة أجمعين بالنبأ العظيم ، وقال لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

إقرار ذرية آدم بربوبية الله

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣]

هذا مشهد عظيم أراد الله تعالى فيه أن يبين لبني آدم وجميع ذريتهم الغاية التي

= لا يلحقه موت ولا يجوز عليه غيبة (مآثر الأنافة فى معالم الخلافة للقلقشندى ج ١ ص ١٥) . وأما إنه يقال لرئيس الدولة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلأنه خلفه فى أمته فى رياسته العامة فى أمور الدين والدنيا .

وهذا هو أرجح الآراء ، ويؤيد هذا ما روى أن رجلا قال لأبى بكر الصديق رضى الله عنه : يا خليفة الله ، فأنكر عليه أبو بكر ذلك ، وقال لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه - أحد خلفاء الدولة الأموية - : يا خليفة الله ، فقال له عمر ، ويلك ، لقد تناولت متناولا بعيدا ، إن أمى سمتنى عمر فلو دعوتنى بهذا الاسم قبلت ، ثم كبرت فكنت أبا حفص ، فلو دعوتنى قبلت ، ثم وليتمونى أموركم فسميتونى أمير المؤمنين ، فلو دعوتنى بذلك كفك . (الأذكار للنووى ج ٧ ص ٣٨ ، ومآثر الأنافة فى معالم الخلافة للقلقشندى ج ١ ص ٥١ ، ورياسة الدولة فى الفقه الإسلامى للدكتور محمد رأفت عثمان ص ١٤ ، ٢٤) .

من أجلها خلقهم أجمعين . فأشهد الله أرواح بنى آدم على أنفسهم ، أشهدهم أنه ربهم لا شريك له ، وأنه خالقهم ، لئلا يتعللوا يوم القيامة بأنهم كانوا لا يعلمون هذه الحقيقة ، أو أنهم كانوا مقلدين لأبائهم فى الغفلة عنها ، فلا يحاسبون عليها .
وكان هذا هو الميثاق الأول الذى أخذه الله على جميع الناس فى عالم الأرواح ، وقبل هذه الحياة الدنيا .

آدم أولا ثم حواء

أما من نص واضح وصريح ، يقول فيه جل وعلا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء : ١]
ويدلنا هذا النص الواضح الصريح على ما يأتى :

(أولا) أن المقصود بالآية الكريمة هو أمر الله تعالى للناس بتقوى الله عز وجل ، وبيان أن الله خلق الناس من آدم وحواء ، فهى تشير إلى بثة تعالى لخلق كثير من الرجال والنساء ، من نفس واحدة وزوجها ، وهى أصل كل الناس فى الأرض ، ولا يكون ذلك إلا من آدم عليه السلام وحواء .

(ثانيا) أن آدم وحواء لم يخلقا فى آن واحد وإنما خلقا فى وقتين اثنين ، فـ «النفس الواحدة» هى آدم ، و «زوجها» الذى خلقه الله منها هى حواء ، فهو معطوف على القول الأول . أى أن «النفس الواحدة» (آدم) خلقت أولا ، ثم خلق منها «زوجها» (حواء) بعد ذلك .

وهناك إشارات ودلائل تؤكد ذلك :

(أ) فلو كان سببنا قد خلق آدم وحواء فى وقت واحد لجاء ذلك مذكورا بوضوح فى كتابه العزيز الذى ﴿ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

(ب) قد لا يفيد حرف العطف (الواو) ترتيبا بين المعطوف والمعطوف عليه فى قوله (وخلق) ، لأن حرف (الواو) كما يقول علماء اللغة لا تفيد إلا مطلق الجمع ، فلا تفيد الترتيب ، فإنك إذا قلت مثلا : جاء خالد وأيمن ، فإن الواو هنا لا

تفيد أن خالدا جاء أولا ثم جاء أيمن ، وإنما أفادت فقط مجيئهما ، لكنه من الثابت أن استعمال حرف الواو غالبا ما يسبق فيه الأول .

(ج) بنفس الطريقة يتكرر الحديث عن موضوع الخلق في القرآن الكريم ، الأمر الذي يؤكد المعنى المشار إليه . فيقول جل جلاله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩]

(د) يتكرر الحديث في القرآن الكريم عن مشهد الخلق والأمر بالسجود ، فيقول عز جلاله - مثلا - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، وهو مشهد يخلو من ذكر وجود حواء .

(هـ) ولماذا الحاجة لكل هذه الأدلة وأمامنا القول الفصل في قوله سبحانه ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : ٦]

هل نحتاج إلى بيّنة بعد ذلك وهو سبحانه يقول إنه خلق الإنسان من نفس واحدة ، (ثم) خلق منه الأنثى ، ومعروف أن (ثم) هي حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي أى التأخير .

الخلاصة الواضحة ، أننا أمام الحقائق التالية :

* آدم خلق أولا

* حواء قد خلقت بعد آدم

* حواء خلقت من آدم نفسه

كيف خلقت حواء من آدم

السؤال جوابه واضح . . فالحقائق تقول إن آدم خلق من تراب ، وإن حواء خلقت من آدم . بهذا نجد أن آدم قد خلق وحده أولا ، ومن التراب ، فإن خلق حواء بعده ، قد لا يستدعى منه تعالى أن يخلقها من تراب أيضا ، ما دام الصنو والمثل موجودين في آدم . وقد أرادت حكمته أن يخلق حواء من أحد أجزاء آدم ، لكي يأنس إليها ويسكن إليها ، لا يفزع منها ولا ينفّر .

ويعطينا الحديث النبوي الشريف دليلا آخر .

فقد جاء فى المروى من الحديث الشريف فى صحيح البخارى : «استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع . .» والضلع المقصود فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم هو ضلع آدم . . هكذا بين العلماء .

وجاء فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى أن آدم بقى وحيدا فى الجنة بعض الوقت ولم يكن معه من يستأنس به ، فألقى الله تعالى عليه النوم وأخذ ضلعا من أضلاعه اليسرى ووضع مكانه لحما ، وخلق منه حواء ، فلما استيقظ وجد امرأة عند رأسه ، فسألها : من أنت ؟ قالت : امرأة ، قال : ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلى .

وإلى مثل ذلك ذهب التوراة إذ جاء فى الإصحاح (٢ - ٢١ - ٢٢) ما ترجمته : «ألقى الله على آدم نوما عميقا ثم أخذ منه أحد أضلاعه . ومن الضلع الذى أخذه الله من الرجل خلق المرأة» .

وحرصا منى على ذكر كافة الآراء التى دارت حول هذا الموضوع ، فيهمنى الإشارة إلى أن الدكتور محمد وصفى فى كتابه (الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل) يرفض فكرة خلق حواء من أحد ضلوع آدم ، ويرى أنها خلقت من نفس العناصر والمكونات التى خلق منها آدم . وفى رأيه أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على معنى مجازى وهو أن الرجل يفقد المرأة ويضيعها إذا ما حاول مقارنة ضعفها وأنوثتها بصفات الرجولة ، فهى كالضلع الذى وضعه الله فى القفص الصدرى معوجا فإذا حاول أحد تقويمه أضاعه وأفقده وظيفته .

مم خلق آدم ؟

آدم - كما أسلفنا - اسم مشتق من أديم الأرض . فسمى آدم - كما يقول بعض العلماء - بما خلق منه . وشاء الله أن يخلق جسم آدم طورا بعد طور ، رغم أنه سبحانه قادر على خلقه فى التو واللحظة ، فهو القائل جل جلاله : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر : ٥٠] .

فكان خلق آدم على مراحل وأطوار . . فى البداية كان التراب والماء ، فكان الطين ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ

طين ﴿[السجدة: ٧]﴾. وترك الطين أجلا معلوما حتى صار لازبا أى شديد التماسك فيقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]. ثم ترك جسد آدم زمنا حتى صار صلصالا من حمأ مسنون. والحمأ هو الطين الذى تغير لونه واسود، والمسنون: المصبوب لييبس. وهو ما يقول عنه سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]. وبعد هذا الطور مضى أجل مسمى عند الله تعالى حتى صار الحمأ المسنون صلصالا كالْفَخَّارِ، وهو ما يقول عنه جل جلاله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. والمعروف أن لفظ الصلصال يشير إلى أجزاء التربة الخصبة الغنية بالعناصر الستة عشر التى يتكرر وجودها فى التربة الزراعية، وفى جميع النباتات والحيوانات. وفيما يلى جدول يبين هذه العناصر، مرتبة بنسبة وجودها فى كل من التربة الزراعية، وفى جسم الإنسان.

جسم الإنسان		التربة الزراعية	
الأكسجين	%٦٣ر٠٢	الأكسجين	%٤٦ر٦٨
الكربون	%٢٠ر٢٠	السليكون	%٢٧ر٦٠
الهيدروجين	%٩ر٩٠	الألومنيوم	%٨ر٠٥
التروجين	%٢ر٥٠	الحديد	%٥ر٠٣
الكالسيوم	%٢ر٤٥	الكالسيوم	%٣ر٦٣
الفوسفور	%٠ر٠١	الصوديوم	%٢ر٧٢
الكلور	%٠ر١٦	البوتاسيوم	%٢ر٥٦
الفلور	%٠ر١٤	المغنسيوم	%٢ر٠٧
الكبريت	%٠ر١٤	الفوسفور	%٠ر١٥
البوتاسيوم	%٠ر١١	الكربون	%٠ر١٥
الصوديوم	%٠ر١٠	الهيدروجين	%٠ر١١
المغنسيوم	%٠ر٧٠	المنجنيز	%٠ر٠١
الحديد	%٠ر٠١	الكبريت	%٠ر٠٩
اليود	آثار	الكلور	%٠ر٠٩
السليكون	آثار	النيتروجين	آثار
المنجنيز	آثار	اليود	آثار

وبعد تمام تسوية جسد آدم، نفخ الله فيه الروح فصار بشرا سويا. فيقول جل جلاله، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]. ومفهوم هنا أن سجود الملائكة لآدم كان سجود تكريم لا سجود عبادة.

أين خلق آدم؟

يخبرنا الحديث النبوي الشريف أنه سبحانه وتعالى خلق آدم من تراب هذه الأرض وفيها. ولكن في أى مكان فى هذا العالم، هنا تتراوح أقوال المفكرين وظنونهم، فمن قائل إنه خلق فى الهند، ومن قائل إنه خلق فى بلاد النهرين. ولكن الحقيقة المؤكدة هى أن أحدا من الناس لم يشهد خلق آدم، فكيف يتحدث البشر فيما لم يشاهدوه.

ولكن روى حديث نبوى يخبرنا أن الله تعالى خلق آدم على جبل عرفات. ففى الحديث الذى يرويه الإمام أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضى الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان، يعنى عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلا: ألسن بربكم قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين».

جنة آدم

ينتهى بنا هذا الحديث النبوى الشريف- إذا صح- إلى حقيقة ساطعة هى أن الجنة التى أسكنها الله آدم وزوجه، وأمر فيها الملائكة بالسجود لأبى البشر، والتى وسوس فيها إبليس، كانت حديقة فى الأرض لها أوصافها التى جاءت فى القصة. وهذا هو القول الذى ذهب إليه غالبية المفسرين، واحتجوا فى ذلك بعدة أشياء منها أنه لو كانت جنة الخلد لما أكل آدم من الشجرة رجاء أن يكون من الخالدين، وأن جنة الخلد لا كذب فيها وقد كذب فيها إبليس، ثم إن من يدخل الجنة لا يخرج منها، وآدم وامرأته قد خرجا منها. إضافة إلى ذلك؛ فإن جنة الخلد لا يسمح الله

بالدخول فيها إلا بعد الحساب، فهي دار جزاء لا دار امتحان. ولو كانت جنة آدم هي جنة الخلد لما خفى ذلك عن آدم، وهو الذي علمه الله الأسماء كلها، ولما خدع بقول إبليس له ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وحيث إن هدفي من إيراد هذه المعلومات هو استيفاء كل جوانب قصة خلق آدم وحواء، فيبقى أن أشير إلى نقطة أخيرة وهي ما الذي أكله آدم وزوجه. لقد أسكن الله آدم وزوجه الجنة وأمرهما بأن يأكلا رغدا حيث شاءا، لكنه سبحانه وتعالى حرم عليهما شجرة معينة، حرم عليهما أن يأكلا منها، بل وحرم عليهما القرب منها مبالغة في التحذير. وقد ذهب الناس مذاهب شتى في تحديد هذه الشجرة - لا يقوم على أى منها دليل - فقيل الحنظلة، وقيل النخلة، وقيل الكافور، وقيل التين، وقيل السنبلة أو الكرمة، وقيل هي نوع من أنواع الموز يصلح للطبخ يسمى «موز الفردوس»، وقيل هي التفاح ولذلك سميت جوزة الحلقوم باسم «تفاحة آدم».

ولكن يبقى في النهاية أن نؤكد أن أبرز ما يجب ملاحظته في ختام قصة خلق آدم وحواء هو مبادرتهما بالتوبة، حيث لم يترددا في الاعتراف بذنبيهما، فقبل الله توبتهما لعلمه بصدق نيتيهما^(١).

(١) يتفق هذا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨]

الفصل الثانى تاريخ علم الأجنة

تمهيد

ليس معقولا ، ولا مقبولا ، أن نتحدث عن الأجنة كما وردت فى محكم كتاب الله الكريم ، دون أن نلقى بنظرة ، ولو سريعة ، على تاريخ علم الأجنة . ونحن هنا سنحاول أن نسلط أضواء عابرة على الجهود التى بذلها السابقون ، وهم يحاولون سبر أغوار الطبيعة وكشف مكنوناتها ، فى مجال الأجنة وكيفية تكونها .

وكغيره من العلوم وتاريخها ، فإن تاريخ علم الأجنة يرتبط بشكل أساسى بتاريخ العلوم عامة . صحيح أن هذا العلم يتناول بالتأصيل كل أشكال الحياة الراقية ، لكنه بنفس القدر يتصل بالتطور التاريخى للتفكير الفلسفى ، حتى إن عبارة «فيلسوف الطبيعة» كانت هى الوصف الذى يستخدمه العالم فى الإشارة لنفسه منذ القدم ، وكان الآخرون أيضا يستخدمونها فى الإشارة إليه .

مراحل تاريخ علم الأجنة

اصطلح المتخصصون على تقسيم تاريخ علم الأجنة إلى ثلاث مراحل، هي :

أولاً: المرحلة الوصفية

تمتد هذه المرحلة قرابة خمسة وعشرين قرناً، من القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر، وهى مرحلة اتفق العلماء على تسميتها بمرحلة «علم الأجنة الوصفى»، حيث اقتصر أدبيات هذه المرحلة الطويلة على وصف الملاحظات المتعلقة بظاهرة تطور الجنين، مع محاولة تفسيرها بطرق متنوعة. وكان غياب المنطق أمراً طبيعياً مع انعدام وجود الأجهزة التى يمكن أن تساعد العلماء والدارسين على فهم حقيقة التطورات التى تمر بها حياة الجنين.

لكننا نقف بالإجلال والاحترام - فى هذا المجال - أمام حضارة مصر الفرعونية القديمة، التى لم تترك واحداً من جوانب الحياة دون أن تفتحه بالعلم والدراسة، ومن بينها الحمل والولادة.

الحمل والولادة عند الفراعنة

كان حرص المصريين القدماء كبيراً على إنجاب الأطفال، وكان حرص المصريين مضاعفاً على الحمل ونجاحه. وكان المصريون القدماء يؤمنون بوجود الإله القادر. وفى نفس الوقت كانوا يقدسون بعض الحيوانات فى صورة معبودات نوعية يقدم كل منها خدمة معينة. كانت هناك المعبودة «تاويريت» على هيئة أنثى فرس النهر، وترمز إلى الخصب البشرى كما تحمى الحوامل من الوضع المتعسر. وأيضاً «أبيس»،

العجل المقدس، ويرمز إلى القوة الجسدية والتفوق فى النسل. وكذلك «حققت»، المعبودة التى ترسم برأس ضفدعة، وكانت تساعد الحوامل فى الولادة. وكان هناك أيضا «خنوم»، ويظهر فى هيئة رجل له رأس كبش، وأمامه عجلة الفخار يشكل عليها الطفل قبل مولده. وكانت هناك «نيت»، ونسب إليها أنها إلهة التناسل، وأنها عظيمة الاهتمام بالحوامل. وكانت هناك أيضا «مسخت» على هيئة سيدة يعلو رأسها نبات مائى، وكانت معبودة للولادة.

وفى باب السحر والتمايم، نذكر أن المصريين القدماء - وخصوصا النساء - كانت لهم رقى يتلوونها عند الحمل والولادة. وكانت هناك علامة «عنخ» التى ترمز للحياة؛ فضلا عن الجعران (وكان يأخذ صورة الإله رع كرجل يحل فيه الجعران محل رأسه)، وكان رمزا للتجدد والخلود. ولكى تضمن المرأة الحامل الحصول على ولادة سهلة وطبيعية، فقد كانت تستعين بتميمة تصور امرأة راقدة على سريرها فى هدوء وراحة شديتين، وإلى جوارها طفلها الذى وضعته فى يسر وبلا معاناة.

ومن بين أحد مظاهر السمو والرقى فى حضارة مصر الفرعونية، يبرز وجود النساء الطبيبات. فهناك لوحة تصور الطبيبة «بسيشيت» Peseshet، وتحمل ألقابا كثيرة منها «المشرفة على الأطباء» و «رئيسة الطبيبات»، مما يفهم منه أننا أمام سيدة عظيمة المقام؛ ومعها مجموعة من النساء يمارسن الطب كطبيبات مؤهلات ولسن مجرد قوابل (دايات). ولاشك أن عدد هؤلاء الطبيبات كان كبيرا من أجل مواجهة حاجة المجتمع إلى التكاثر والتناسل، وكن يتمتعن بقدر كبير من الاحترام والتكريم باعتبار أنهن اللائى يتلقين المولود الجديد على أيديهن، سواء كان هذا المولود لفرعون أم لوحدا من عامة الشعب. والجدير بالذكر هنا أن الطبيب الرجل (ويطلق عليه اسم «سونو») لم يكن يشارك إطلاقا فى عملية الولادة.

كان المصريون القدماء على معرفة تامة بماهية الإسهام الذى يؤديه الذكر فى عملية الحمل، بل إن الأدب المصرى يعطى للرجل «الدور الجميل» Beau Role فى تلك العملية. لكنهم لم يعرفوا ما الذى يحدث «للبذرة» فى الداخل، لكن المصريين القدماء تأكدوا من وجود نوع من العلاقة بين عدة أشياء مثل الخصيتين والقضيب والمنى وبين الحمل. وكان رأى العلمى لديهم أن المنى ينبع من الحبل الشوكى

(وهى نظرية استمرت تظهر وتختفى فى طب أوروبا فى القرن التاسع عشر). وربما يكون مرجع ذلك إلى الكهنة الذين كانوا يذهبون القرايين، وكانوا يعتقدون بأن قضيب الثور يعتبر امتدادا لعموده الفقرى. ومن هنا كان اهتمامهم بالعظمة الموجودة فى آخر أربع أو خمس فقرات فى نهاية العمود الفقرى عند العجز باعتبار أنها المسئولة عن الحفاظ على منى الرجل، ثم ارتبط هذا الاعتقاد بأسطورة تقطيع جسم «أوزوريس»، ومن هنا جاء الاسم التقليدى لهذه العظمة وهو Os Sacrum أى «العظمة المقدسة».

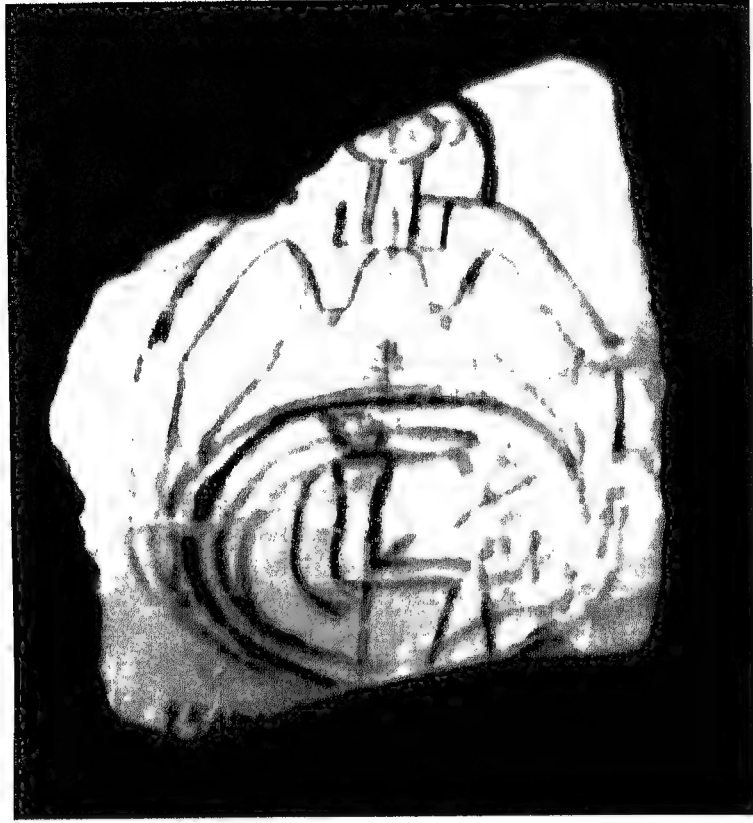
ونتوقف عند محطات قد تكون عابرة لكنها ذات مغزى ومعنى فى بيان ما كان فى جعبة المصريين القدماء عن الحمل: (شكل ١)

مدة الحمل: عرف المصريون مدة الحمل، بعكس ما يقول به البعض. ففي إحدى البرديات الطبية (وستكار) نجد «خوفو» يسأل الساحر «دجيدى» Djedi متى ستم ولادة «ريدجدت» Reddjeddet فيجيبه قائلا: «سوف تولد فى الخامس عشر من أول شهر الشتاء، وتلك فترة تتراوح بين ٢٧٥ و ٢٩٤ يوما». وهذه الفترة تحديدا هى التى تقول عنها بعض الروايات والأساطير إنها مدة حمل «إيزيس» فى «حورس» ونقرأ على أحد التوابيت - فى برلين - العبارة التالية: «أمك احتفظت بك حتى اليوم الأول من الشهر العاشر».

منع الحمل: قدم الطبيب المصرى القديم للبشرية أول وسيلة لمنع الحمل فى التاريخ، بهدف مساعدة المرأة على ضبط الإنجاب، فكان بذلك الإنجاز الرائع سابقا لأقرانه من أطباء عصرنا بأكثر من أربعة آلاف عام. ففي بردية (ايبرس) الطبية نجد الوصفة التالية لمنع الحمل:

وصفة ٧٨٣: بدء الأدوية التى تجهز للنساء: علاجا لمنع الحمل لمدة سنة واحدة أو سنتين أو ثلاث سنوات: جزء (قا) من السنط - حنظل (ظرت) - بلح - يصحن ناعما مع (هن) من العسل - شعر بلر seed wool يبلل به ويوضع على فرجها».

ويلاحظ أن هذه الوصفة تتضمن ما يمكن فهمه على أنه لبوس، تستمر صلاحيته مدة تتراوح بين السنة وثلاث سنوات، وهى فى المفهوم الطبى فترة كافية لأن تسترد المرأة صحتها وتستعيز ما فقدته فى آخر حمل لها من كالسيوم ومعادن وغيرها.



(شكل ١) صورة من إحدى البرديات الطيبة الفرعونية لتصوير قدماء المصريين عن تكوين الجنين داخل الرحم

فيما بعد الفراعنة

يذهب بعض الباحثين ، إلى أن اليونانيين القدماء هم أول من ربط العلم بالمنطق بفضل تحليلهم للملاحظات بالمنطق لا بالقوى السحرية الغامضة . ويرصد بعض الباحثين ظهور مفهوم أساسى خلال هذه المرحلة من تاريخ علم الأجنة يعرف بـ «التغير المتعاقب» ، حيث هيمنت كتابات أرسطوطاليس وجالينوس .

ونتوقف قليلا عند أرسطو ، الذى أطلق عليه فلاسفة المسلمين لقب المعلم الأول ، والذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد (٣٨٤ إلى ٣٢٢ ق . م .) وكان

أرسطو أول من خصص جانبا من بحوثه لعلم الأجنة بناء على ملاحظاته على أجنة الطيور والحيوانات . صحيح أنه انزلق إلى عالم الخرافات والأساطير ، إلا أن ذلك لا يعيبه فقد كانت تلك أحوال عصره وزمانه ، والعالم ليس إلا محصلة ونتيجة لمعلومات عصره .

وقد لخص أرسطو في بحثه عن الأجنة معتقدات أهل عصره ورأيه فيها ، واعتبرها تدرج تحت نظريتين (١):

الأولى : وهى أن الجنين يكون جاهزا فى ماء الرجل فإذا دخل ماء الرجل الرحم انعقد ، ثم نما كما تنمو البذرة فى الأرض يستمد غذاءه من الرحم .

الثانية : أن الجنين يتخلق من دم الحيض حيث يقوم المنى بعقده مثلما تفعل الأنفحة باللبن فتعقده وتحوله إلى جينة . وليس للمنى دور فى إيجاد الولد قط ؛ وإنما هو دور مساعد مثل دور الأنفحة فى إيجاد الجينة .

ومنذ عام ٢٠٠ بعد الميلاد ، وحتى القرن السادس عشر ، لم تسجل أية معلومات تذكر عن الأجنة فى المؤلفات العلمية فى الغرب ، ولولا الكتاب المسلمون الذين عكفوا على الترجمة لفقد العلم كثيرا من كنوز مؤلفات اليونانيين .

وانطلاقا من القرن السادس عشر تدافعت نشاطات البحث العلمى حول موضوعات الخلق والتكوين ، وأصبحت محل نقاش دائم ، وهو ما نستعرضه فيما يلى :

تبين بعض الرسوم ، خلال القرن السادس عشر ، كيف يتكون الجنين من كتلة دموية وبذرة ، وهذا المفهوم الخاطئ قال به أرسطوطاليس وانتقل على مر القرون ، وكان الاعتقاد السائد فى هذه الحقبة أن الجنين يتولد من دم الحيض .

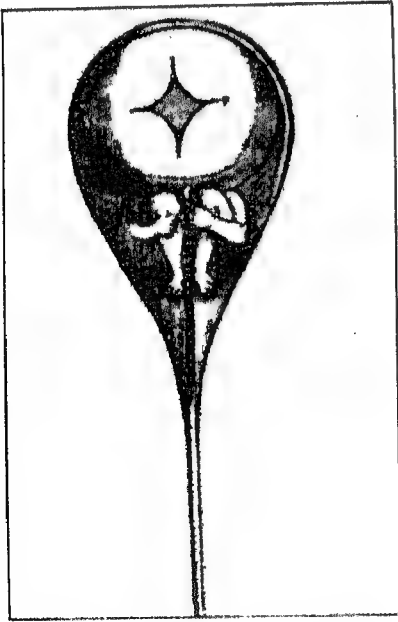
والجدير بالذكر هنا أنه فى الوقت الذى سادت فيه هذه الفكرة عند جميع الأطباء إلى ما بعد اكتشاف المجهر ، كان علماء المسلمين يرفضون فكرة أن يتولد الجنين من دم الحيض ، مستندين إلى آيات قرآنية عديدة مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكْ نُطْفَقْ مِنْ مَّنِيِّ يَمْنَى ﴾ [القيامة : ٣٧] ، والأحاديث النبوية التى رويت فى هذا المجال . وكان هذا

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، د. محمد على البار

واحدا من صور السبق للقرآن الكريم والسنة النبوية لما كان مستقرا عند أهل العلم من غير المسلمين .

وعندما نستعرض صفحات التاريخ فإننا نجد أمانا رسما ممتازا لتطور جنين دجاجة من أعمال «فابريسيوس» (١٦٠٤) ، وربما لجنين الدجاجة المتخلق يظهر بوضوح تام (وهي الفلقات التي تعرف اليوم أنها تحتوي على خلايا تولد الجزء الأكبر من الهيكل العظمى للجسم وعضلاته ، وهو رسم لـ «مارسيلو مالبيجي» (١٦٧٢) ونشرت في نفس الوقت تقريبا مجموعة أخرى من الرسوم ، منها بعض صور أجنة الدجاج وأخرى تظهر تخلق الجنين البشرى .

هنا تجدر الإشارة إلى أن فكرة الخلق التام للإنسان من أول مراحلها كانت تسيطر في تلك الفترة على أذهان العلماء ، حيث كانوا يعتقدون أن التخلق الإنساني ليس إلا زيادة في الحجم لصورة واحدة تتسع أبعادها بمرور وقت الحمل .



(شكل ٢) شكل يبين الحيو ان المنوى

أما نقطة التحول الجذرية فتمثلت في اختراع المجهر ، وهو الأداة التي توجت تقدم علم الأجنة الوصفى ، وفتحت الطريق أمام ظهور الحقيقة بأكملها . فقد أدى التطور إلى إعلان كل من «هام» و «فان لوفينهوك» اكتشاف الحوين المنوى (١) (شكل ٢) ، وتظهر صورة الحوين المنوى البشرى التي نشرت في عام ١٠٧١ .

ويبدو أن اكتشاف المجهر في تلك الأثناء لم يكن كافيا لتوضيح تفاصيل تكوين الحوين المنوى ، وترتبط على ذلك فقد قام العلماء بإكمال الصورة من خيالهم ، وعادوا إلى التعبير عن الفكرة

(١) الحوين تصغير كلمة الحيوان .

السائدة لديهم وهى أن (الإنسان يكون مخلوقا تاما فى الحوين المنوى فى صورة قزم (شكل ٣). ونجد تجسيدا لهذه الحقيقة فى الرسم الذى قدمه «هارتسوكر» للحوين المنوى (١٦٩٤) بعد اكتشاف الميكروسكوب بفترة. الخلاصة أن العلماء فى تلك الفترة لم يعرفوا بعد أن خلق الإنسان فى رحم أمه يمر بأطوار مختلفة الخلق والصورة.

ومن عجب أن نجد أن هذه الحقيقة تقرر فى القرآن الكريم والسنة المطهرة قبل ذلك بقرون عشرة. فالقرآن الكريم يقرر أطوارا لخلق الإنسان. فى مثل قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].



(شكل ٣) صورة من رسم العالم هارتسوكر حيوان منوى بهيئة مخلوق تام التكوين (سنة ١٦٩٤)

وكان «ماليجي» - الذى يعتبر أبا لعلم الأجنة الحديث - قد ظن أن بيضة الدجاجة غير المخصبة تتضمن شكلا مصغرا للدجاجة ، وذلك إثر دراسته لبيضة دجاجة غير ملقحة عام ١٦٧٥ . وبينما كان فريق من العلماء يرى أن الإنسان يخلق خلقا تاما فى بيضة المرأة ، كان فريق آخر يقرر أن الإنسان يخلق خلقا تاما فى الحوين المنوى . ولم ينته الجدل بين الفريقين إلا حوالى عام ١٧٧٥ ، عندما أثبت «سبالا نزانى» أهمية كل من الحوين المنوى والبيضة فى عملية التخليق البشرى .

هذا فى الوقت الذى نجد فيه أن هذه القضايا قد حسمت بشكل قاطع فى القرآن الكريم والسنة النبوية قبل ذلك بمئات السنين ، مؤكداً أن التخلق هو عملية مشتركة بين الذكر والأنثى . ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات : ١٣] .

ثانيا: علم الأجنة التجريبي:

لم تكتشف بيضة الثدييات إلا فى أواخر القرن التاسع عشر . واعتبارا من نهاية القرن التاسع عشر وحتى الأربعينيات من القرن العشرين ، بدأت المرحلة التاريخية الثانية ، وهى علم الأجنة التجريبي ، وذلك بكتابات «فون باير» و «داروين» و «هيجل» . وكان «فون باير» عملاقا فى عصره فى هذا المجال ، فقد قفز بعلم الأجنة من التجارب والملاحظات إلى صياغة المفاهيم الجنينية لا العكس .

كذلك تميزت المرحلة التاريخية الثانية بالبحث عن (الآليات) . وبرز اسم «ويليهيلم روكس» فى هذا المجال ، وانتقلت الدراسة الجنينية من وصف الملاحظات إلى التدخل ومعالجة الكائنات الحية المتطورة .

وقد شغلت مسألة معرفة الآلية التى يحدث فيها التمايز بين الخلايا اهتمام الباحثين أمثال «ويلسون» و «تيودور» و «بوفيرى» و «هاريسون» ، وبدأ «أوتو واربورج» دراسات عن الآليات الكيميائية للتخلق ، ودرس «فرانك راترى ليلى» طريقة إخصاب الحوين المنوى للبيضة ، كما درس «هانس سبيما» آليات التفاعل النسيجي كالأذى يحدث خلال التطور الجنينى ، ودرس «يوهانس هولتفرتر»

العمليات الحيوية التى تظهر بعض الترابط بين خلايا الأنسجة فيما بينها وبين خلايا الأنسجة الأخرى .

ثالثا: مرحلة التكنولوجيا الحديثة:

وتمتد هذه المرحلة من الأربعينيات حتى يومنا هذا . وقد أدى تطور الأجهزة والتقنيات الحديثة إلى إحداث تأثير كبير على مجرى البحوث والدراسات ، حتى وصل الأمر إلى أن ما كنا نعرفه قبل أعوام قليلة أصبح يتغير كلية مع التقدم التكنولوجى المتسارع .

وعلى سبيل المثال فإن المجهر الإلكتروني ، وآلات التصوير المتطورة الأخرى ، وقياس الشدة النسبية لأجزاء الطيف ، والكمبيوتر ، ومجموعة وسائل الكشف عن البروتينات والأحماض النووية ، والكربوهيدرات المعقدة وعزلها وتحليلها ، يمكن أن تعتبر كلها عوامل تجعل علماء «الأحياء البيولوجى النمائي» اليوم فى وضع يسمح لهم بإجراء تجارب كانت تبدو قبل عقد من الزمن مجرد حلم خيالى . ويمكننا اليوم أن نجري تحليلا دقيقا مفصلا لسطح الخلايا خلال تمايزها . ويمكننا أيضا أن ندرس دور النواة ، وجبلة الخلية (السييتوبلازم) ، والمنابت خارج الخلية باستخدام تهجين الخلايا وغرس النواة وغرس الجينات فى الرحم ، وغير ذلك من التقنيات . ويمكننا أن ننظر الآن إلى الأجنة بوضوح لم يكن يمكن تصوره فى زمن العالم «ماليبجى» . ويمكننا أن ننظر داخل هذه الأقسام لفهم آليات التمايز الطبيعى والشاذ وأيهما أفضل .

الخلاصة:

يدلنا استعراض تاريخ الأجنة على أن البشرية اهتمت بكشف أسرار التخلق البشرى . فاقترنت الدراسات الأولى على استخدام الوصف التخيلى كنتيجة حتمية لقلة الوسائل التقنية المتقدمة آنئذ ، وبعد اختراع المجهر اتسمت الدراسات بدقة أكبر وإن ظلت تستخدم الوصف إلى جانب الأساليب التجريبية . ولم يتم

التوصل إلى فهم أدق ووصف أشمل للتخلق الجنيني إلا في هذا القرن وباستخدام الأجهزة الحديثة فقط .

اللافت للنظر هنا ، أنه قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، كانت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهرة تتضمن وصفاً دقيقاً ، شاملاً ، صحيحاً ، للتخلق البشري ، مع بيان مفصل للتتابع المرحلي المضبوط لكل الفترات . مثل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤]

✓

الفصل الثالث

آيات من القرآن الكريم

وأحاديث نبوية تتحدث عن مراحل التخليق البشرى

تقديم

عندما كنت أقرأ القرآن، كانت تطالعنى عبر صفحاته كثير من المصطلحات والتعابير الفنية والعلمية التى نتداولها فى عملنا فى مجال طب النساء والحمل والولادة. وحيث إننى قد تصدّيت لموضوع كيفية بيان آيات القرآن الكريم لإعجاز الخلق الإلهى، فقد رأيت من المفيد أن أحاول تجميع كل الآيات التى تتعرض لموضوع الخلق فى الأرحام، لعل فى ذلك فائدة للقارئ والباحث. ولم يفتنى بالطبع أن أدرج فى هذا التجميع المبوب بعضاً من الأحاديث النبوية الشريفة التى تعرضت للموضوع نفسه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧]

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]

﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ [عبس: ١٧-١٩]

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦]

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]

﴿أَوْ لَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]

﴿وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿ [الإنسان: ١-٢] ﴾
 ﴿ يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ [الانفطار: ٦-٨]

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴿ [غافر: ٦٧] ﴾
 ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿ [نوح: ١٣، ١٤]

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿ [التين: ٤] ﴾
 ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿ [النساء: ١]

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿ [الفرقان: ٢] ﴾
 ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴿ [الفرقان: ٥٤] ﴾
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴿ [الروم: ٢١] ﴾
 ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿ [الملك: ١٤]

﴿ أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِّنْ مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴿ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿ [القيامة: ٣٧-٣٩]

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿ [الرعد: ٨]

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿ [الليل: ٤، ٣]

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿ [العلق: ١، ٢] ﴾
 ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴿ [الحجرات: ١٣]

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: ٨]

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢٠) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (٢١) ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢٢) ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣]

﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (٨) ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧ - ٩]

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر: ٢٤]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]

﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٢٧]

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٢، ٣]

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ [فصلت: ٤٧]

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يَزْوَجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج: ٥]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [الأعراف: ١١]

﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [فاطر: ١١]

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١]

﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

﴿ وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُم السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨]

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [الملك: ٢٣]

أحاديث نبوية شريفة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها، وخلق سمعها، وبصرها وجلدها، ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك». أخرجه مسلم، وأبو داود، والطبراني، وجعفر الفرياني

«مر يهودى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقالت

قريش : يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبي ، فقال لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي ، قال فجاء حتى جلس ثم قال : يا محمد م يخلق الإنسان ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا يهودى من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة . مسند أحمد

فيما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الصدوق قال : «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فى الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد» . صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٦ - ٢٦٤٣ .

الفصل الرابع مراحل الخلق كما وردت فى القرآن الكريم

تمهيد

سبحانك يا الله . . يا عظيم . .

قرآنك الكريم يحتوى بين صفحاته كل تفاصيل مراحل الخلق البشرى ، بينما كان الجهل يبسط ظلامه على عقول البشرية جمعاء . كلماتك الصادقة تعبر أفضل تعبير عن الحقيقة العلمية ، بينما كان الناس يتخبطون بين مفاهيم ونظريات لا علاقة لها بالحقيقة ولا نصيب لها من الصحة . أما الأمر المثير للخشوع فعلا فهو أن المراحل الصحيحة ، موجودة متكاملة ، بألفاظ وعبارات وصفية دقيقة ، منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولم يتمكن العلم الحديث من إيجاد بديل لها ، أو على الأقل معادل لها .

ولا مبرر للدهشة . . فنحن أمام كلمات الله القادر العليم . .
وسوف نستعرض ما لدينا من شواهد وحجج فى هذا السياق .

علم القرآن الكريم.. فى مواجهة جهل البشرية

منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، نص القرآن الكريم - بكلمات صريحة واضحة - على أن خلق البشر يتم على مراحل، من خلال أطوار متتابعة متلاحقة. واستخدم القرآن فى عرضه لمرحلة الخلق مصطلحات علمية دقيقة، لم يقف العالم على عتبة المعرفة بها إلا منذ مائة عام أو أكثر قليلا.

وفيما عدا علماء المسلمين، فإن كل هذه الحقائق لم تكن معروفة لدى علماء البشر حتى منتصف القرن الماضى. فمنهم من كان يعتقد النظرة الإغريقية بأن الجنين يتخلق من دماء الحيض. وعندما اخترع الميكروسكوب فى القرن السابع عشر، واكتشف الحيوان المنوى، كان اعتقاد العلماء أن كل خلية منوية تحمل كائنا بشريا كامل الخلق دقيق الحجم، وهكذا اتجهوا إلى تجاهل الإسهام الوراثى للأُنثى فى تخليق الجنين. ثم اكتشفت البيضة فى القرن الثامن عشر، فاتجه العلماء إلى الاعتقاد بوجود كائن بشرى متكامل التخلق دقيق الحجم فيها، وهكذا قصرت أفكارهم عن دور الذكر فى التناسل. إجمالا نقول إن محصلة كل هذه المعتقدات والنظريات الخاطئة كان الاعتقاد بأن الحمل منذ بدايته يحتوى على كائن بشرى متكامل الخلق.

أما القرآن الكريم فقد عرض لعملية الخلق من خلال أطوار ومراحل متتالية، منها السريع ومنها البطيء، منذ البداية حتى النهاية، (مثل: سلاله من ماء مهين - نطفة - علقه - مضغة)، ويتسميات تنطوى على تحديد دقيق للخصائص والوظائف الأساسية (مثل وصف الرحم بأنه «قرار مكين»). بل إن المصطلحات القرآنية تتحدث عن أحجام بالغة الصغر للجنين لا يمكن رؤيتها ولا قياسها إلا تحت الميكروسكوب فقط، فالنطفة يبلغ قطرها (٠.١ ملم)، والعلقه يتراوح طولها بين (٠.٧ - ٣.٠ ملم)، والمضغة طولها (٣.٢ - ١٣ ملم). أما اختيار حروف العطف فقد جاء متميزا للتدليل على توقيت حدوث المراحل والأطوار الرئيسية الأربعة، فجاء حرف (ثم) للإشارة إلى المراحل الأساسية، وجاء حرف (الفاء) للإشارة إلى المراحل الفرعية التى تحدث بتتابع سريع نسبيا.

ومن يقرأ القرآن الكريم يجد أن هناك وحدة متماسكة. فى الحديث عن الخلق

ومراحله وأطواره، لا تتغير فيها المفاهيم ولا الألفاظ، مهما تكررت الإشارة إليها في آيات الذكر الحكيم. فنحن إذن أمام حقيقة علمية صحيحة دقيقة، لا تختلف مصطلحاتها ولا تتعارض ألفاظها. . وحاشا لله، فكيف يحدث هذا التعارض والخلاف، وهناك رب واحد علیم هو قائلها.

وتعالوا نقرأ سوياً نماذج من هذه التعبيرات الإلهية البالغة الدقة :

أولاً: عن المفهوم الأساسي في الخلق: ومفاده أن الله هو الخالق:

﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨٦]

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣، ١٤]

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]

﴿ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٩]

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فصلت: ٤٧]

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾

[الرعد: ٨]

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر: ٦]

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّا هَبْ لِمَن يَشَاءُ

الدُّكُورَ أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]

ثانيا: مرحلة البداية: فيها الإشارة إلى المنبع والمصدر اللذين بدأ منهما الخلق:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ
مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ ﴿[السجدة: ٨، ٧]
﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ
وَالْتَرَائِبِ ﴿[الطارق: ٧ - ٥]

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]
﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الكهف: ٣٧]
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]
﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿[الواقعة: ٥٨، ٥٩]

ثالثا: مرحلة التخليق: وهي مرحلة المتغيرات المتلاحقة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى العظام، إلى كسوتها باللحم:

النطفة:

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢١]
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]
﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الكهف: ٣٧]
﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]

﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ [عبس: ١٩]
 ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّرَّاجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦]
 ﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [يس: ٧٧]
 ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [غافر: ٦٧]
 ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ [القيامة: ٣٧]
 ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [النحل: ٤]

العلقة:

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ٢]
 ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [المؤمنون: ١٤]
 ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ [القيامة: ٣٨]
 ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ [غافر: ٦٧]

المضغة:

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون: ١٤]
 ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج: ٥]

العظام:

﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ [المؤمنون: ١٤]
 ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩]
 رابعا: مرحلة النشأة: وفيها تتم التسوية والخلق:

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨، ٧]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥٠]

﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١]

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٣، ٢]

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [القمر: ٤٩]

﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣، ٢٢]

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]

كل هذه النصوص الصريحة والواضحة، والعلمية الدقيقة، تشرح لنا الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، والتي تنتهى بتحديد الهدف المطلوب، وهو ما يقوله رب العزة في سورة الحجرات (الآية ٣١):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

* * *

وبتفصيل أكثر اتساعاً نمضى في رحلتنا مع الآيات القرآنية الكريمة لكى نزداد استيضاحاً حول مدى إعجازها في بيان خلق الإنسان.

الفصل الخامس الطور الأول البداية

تمهيد

لا بد من أنه توجد نقطة معينة ، عندها يبدأ الخلق .

وذلك هو ما يقدمه لنا رب العزة في قرآنه الكريم ، إذ يقول : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٥ - ٧]

أى إعجاز هذا ؟! ففى بلاغة ساحرة (ولا غرو فنحن أمام كلام رب عظيم) نجد أن أسرار النشأة الأولى للإنسان مطروحة أمامنا فى هذه الآيات الثلاث .

جدير بنا أن نلاحظ أن رب العزة ، قبل أن يكشف لنا هذه الأسرار ، يؤكد بها بذاته بقسم جليل من لدنه : بالسماء ، وهى كل الكون المحيط بنا ، وبالطارق وهو النجم الذى يشكل وحدة بناء الكون ، فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ١ - ٧]

التعدد والاختلاف فى خلق الإنسان وحكمة الله فى ذلك

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم: ٤٥]

تلك هى حكمة الله فى التعدد والاختلاف . فلم يكن هذا التعدد والتنوع فى الخلق نسخا مكررة من أصل واحد ، أى استنساخا لفرد معين فى التكوين والأخلاق والطباع والسلوك . وهذا الاختلاف آية من آيات الله الكونية ، فلم يخلق الله عالما واحدا ولكنه خلق عوالم متعددة على أحوال متفاوتة فى التنوع والتعدد . ووجود الإنسان وبقاؤه فى الكون يتوقفان على هذا التعدد والاختلاف . وإن الأمر لا يتوقف عند هذا ، ولكنه يتجاوزه إلى تنوع تضاد . وهذا الاختلاف والتضاد هما الذان يقوم عليه الوجود كله . وليس من المتصور نظريا ولا علميا أن يقوم الوجود على أحد المتضادين دون اعتداد بالآخر^(١) .

إن الله حينما نوّع الأجناس لم يرد أن تتناكر وتتخالف ، ولكنه أراد أن تلتقى وتتألف . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] .

وإن استمرار الحياة لا يتأتى إلا بوجود الذكر والأنثى . فالخلق من ذكر وأنثى يعنى أن الحياة تنتج من التقاء الأنواع المتضادة . فالذكورة ضد الأنوثة ، وكل من

(١) دكتور أحمد محمد على (أستاذ بكلية اللغة العربية - جامعة محمد بن سعود الإسلامية).

الزوجين مضاد للآخر . وليس هذا فى الأنواع الحية من إنسان وحيوان ونبات فحسب ، ولكنه شأن الوجود كله .

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : ٤٩]

وقضية خلق السموات والأرض لا تتوقف دلالتها عند عظمة الخلق التى يستدل بها على عظمة الخالق ، خاصة أن الله يبين لنا أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .

هكذا على الإطلاق ، فالزوجان سر الوجود كله . والتزاوج المنتج هو تزاوج ضدين لا تزاوج تماثل . فالأسرة المكونة من متماثلين - لو وجدت - رجلين أو امرأتين ، لا تنتج شيئا . ولو تصورنا جدلا أن نظام الأسرة فى الوجود كله قام على متماثلين لفنيت الحياة .

وهذا القانون الإلهى فى الوجود يفهمه الحيوان بالغريزة ، ويفهمه الإنسان العادى بالفطرة ، ويفهمه الأنبياء والمرسلون والمؤمنون بالوحى الإلهى . والإنسان مأمور بأن يحقق الإنسجام بين حركته الحرة المختارة ، وبين سنن الله الكونية .

وبداية خلق الإنسان تعتمد على اتحاد وتزاوج ضدين : الذكر والأنثى ، الحيوان الذكرى من الرجل والبيضة من المرأة ، وينتج منهما باتحادهما حياة جديدة ، وخلق مختلف عن أى منهما ، ذكرا أو أنثى ، وتستمر الحياة ويبقى النوع .

وقد خلق الله سبحانه وتعالى بنى آدم وكرمهم على كثير من المخلوقات ، وجعل نظام بقائهم مرتبطا بارتباطهم بالتزاوج والتناسل .

الخلية هى البداية :

إذا كانت الحياة تبدأ بطرق مختلفة للتكاثر ، فإن الكائنات - آدمية أو حيوانية - تبدأ بخلية واحدة .

وهذه الخلية (البيضة المخصبة - الأمشاج) تحتوى بداخلها على جينات من الذكر والأنثى ، وتؤثر إلى جميع الخصائص المكتسبة للجنين مستقبلا . وهذه الخصائص

التي اكتسبت عبر بلايين السنين تستلزم ألا ينجب الإنسان آدمي إلا إنسانا آدميا ،
وتجعل - فى نفس الوقت - الاختلاف والتباين أمرين قائمين ، إلا فى حالة التوائم
المتماثلة . وبذلك يختلف أى شخص عن الآخر اختلافا بينا ، ويستمر هذا
الاختلاف على مدى السنوات والقرون إلى أن تفنى الحياة .

وكلما تقدم العلم وارتقت المعرفة ، وأمكن للعلماء دراسة بداية الحياة والخلق ،
وبالتقنية الحديثة ، كلما أصبح ممكنا رؤية الوقائع التى تحدث منذ بداية الخلق ،
وتصوير مراحلها وأطوارها المتتابعة بدقة متناهية ، منذ إخصاب البيضة حتى تكون
الجنين .

وفى غضون ذلك كله ، فى قصة تكوين الجنين ونموه ، يظهر الإعجاز الإلهي
لبيان آيات القرآن فى خلق الإنسان .

كانت تلك المقدمة - رغم طولها - ضرورية للدخول فى الحديث عن نقطة البداية فى
الخلق .

ما هو الصلب وما هى الترائب ؟

من المعلوم أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، ومن ثم فإننا نبدأ فى البحث فى
كتاب الله نفسه ، ثم فى الحديث النبوى الشريف ، فنجد :

﴿ ذكرت كلمة «الصلب» مفردة مرة واحدة فقط فى تلك الآية .

﴿ وذكرت كلمة الصلب مرة أخرى واحدة ، وبصيغة الجمع ، فى قوله تعالى :

﴿ وَحَالِلٌ أَبْنَاتِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣]

﴿ أما فى الحديث النبوى الشريف ، فيقول صلى الله عليه وسلم - فى
وصفه للمشركين - «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا
يشرك به» .

﴿ وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الله خلق للجنة أهلا خلقها
لهم ، وهم فى أصلاب آبائهم» .

❖ وأما كلمة «تراثب» فلم يرد ذكرها مرة أخرى في الكتاب العزيز.

المعنى اللغوى للصلب والتراثب

أجمعت قواميس اللغة ومعاجمها على أن الصلب هو عظم في الظهر ذى الفقر، من الكاهل (وهو ما بعد العنق) إلى العجب (أسفل الظهر). جمعه أصلب وأصلاب. والصلب هو الحسب. ويقال: عربى صليب أى خالص العروبة والنسب.

أما التراثب، وواحدتها تريبة، فهى عظام الصدر أو ما ولى الرقبة منه، أو ما بين الشدين والترقوتين، أو أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة من يسرته، أو هى موضع القلادة من الصدر.

وقال بعض المفسرين إن الصلب هو صلب الرجل، وإن التراثب هى تراثب المرأة (ما فوق الشدين وموضع القلادة). وقال البعض الآخر: يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة، وتراثب كل منهما.

فى التحليل النهائى لما أوردته كثير من المعاجم والتفاسير، نجد أن كلمة «الصلب» - وإن كانت مرادفة لمعنى الظهر - فمقصود منها جزء مخصوص من الظهر وليس الظهر كله. كما نجد أن المقصود بالتراثب ليس كل الأضلاع وإنما هى أضلاع مخصوصة.

الرأى فى المعنى اللغوى

معلوم أن العمود الفقرى يتكون من ٧ فقرات عنقية و ١٢ صدرية و ٥ قطنية و ٥ عجزية ملتحمة و ٥ حرقفية (عصعية) ضامرة.

ويبدأ الصلب من الكاهل، الذى هو مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق، أى أن الفقرات العنقية ليست جزءا من الصلب - وأما نهايته فهى العجب (العجز).

وعليه فيكون الصلب هو:

الفقرات الصدرية + القطنية + العجزية

أى ما يساوى ١٢ + ٥ + ٥ = ٢٢ فقرة

وأما الترائب، فليست هى أضلاع الصدر على إطلاقها، وإنما هى - على التخصيص - أربعة أضلاع من يمنة الصدر، وأربعة من يسرته، مما يلى الترقوتين فى موضع القلادة.

يخرج من بين

جاء فى الآية الكريمة تعبير «يخرج من بين»، وذلك قبل الصلب والترائب. وقد ذهب بعض الأقدمين فى تفسيرهم لهذه الآية إلى أن المنى يخرج من صلب الرجل، وماء المرأة يخرج من ترائبها. وهذا خطأ علمى وخطأ منهجى، حيث لم يعطوا الآية حقها فحذفوا كلمة «بين»، ولذلك وقعوا فى الخطأ؛ فالمفروض أن تؤخذ الآية كلها دون إسقاط لفظ منها.

وأما هنا - كنموذج - الآية رقم (٦٦) من سورة النحل وفيها نقرأ قوله تعالى: ﴿تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل: ٦٦]. فالنتج هنا، وهو اللبن، مفرد لكن أصله عديد، إذ هو الفرت والدم، وكل منهما له مكونات عديدة مما قد لا يحصى. وكذلك هو الماء الدافق، هو مفرد، ولكن أصله عديد وهو الصلب والترائب. فقوله ﴿يخرج من بين فرت ودم﴾ يفيد بأن اللبن مزيج استخلص استخلاصا من كل مكونات الفرت ومن مكونات الدم، حتى صار شيئا جديدا. وكذلك هو الماء الدافق، قد اشتقت مكوناته العديدة واستخلصت استخلاصا من مصادر عديدة، وهى الصلب والترائب. وترتبا على هذا الفهم لكل كلمات الآية والمراد منها، يكون المقصود فى قوله تعالى ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أن يخرج من منطقة تقع فى مكان وسط بين الأضلاع والظهر.

فلو كان ذلك صحيحا فإنه بالتالى يصبح صحيحا أيضا فى تفسير آية ﴿تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾، قولنا بأن اللبن يخرج من منطقة تقع فى مكان وسط بين الفرت والدم، وهو قول ظاهر بطلانه.

وفى قوله تعالى ﴿أَوْ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] وقوله ﴿أَوُلِّقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ

مِنْ بَيْنِنَا ﴿ [القمر: ٢٥] - ليس المقصود بقوله استنكار الكفار أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ظهر فى وسطهم ، بل هو استنكارهم أنه قد اختير من بينهم ، وهم كثير .

وهذا رأى تؤيده الأحاديث النبوية الشريفة . فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم كلمته الشهيرة فى كفار مكة «لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله عز وجل . . .» . وقوله صلى الله عليه وسلم «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» . وفى الحديث أيضا «إن الله خلق للجنة أهلا ، خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم» .

نخرج من ذلك كله بأمر واضح ومؤكد ، هو أن الأصلاب هى أصل خلق الإنسان ، لا أنه مخلوق من مكان وسط بين الصلب والترائب .

ما هو الشيء الذى يخرج من الصلب والترائب ؟

اتفق الجميع ، قديما وحديثا ، على أن الذى يخرج هو الماء الدافق . لكن مفسرا واحدا انفرد بالذهاب الى أن المقصود هو الإنسان المولود لا الماء الدافق ، لاعتقاده بأننا (إذا أرجعنا ضمير يخرج إلى الماء الدافق كما فعل المسلمون حتى الآن فهذا جائز حسب قواعد اللغة لقربه من الماء الدافق ، ولكن هذا لم يمنع من إرجاع الضمائر الأبعد منه كالهاء فى «رجعه» والهاء فى «فما له» للإنسان الذى ورد ذكره قبل الماء) . وقد خلص من ذلك إلى أن (الجنين يكون أثناء الحمل وفى تمامه وحين يخرج - أى أثناء الولادة - بالضبط بين الصلب والترائب . وأن الله تعالى يلفت نظرنا إلى عملية الولادة المعقدة التى تستحيل حساباتها وترتيباتها على غيره سبحانه) .

وأضاف هذا المفسر قائلا بأن (الخط الواصل بين الصلب والترائب ينطبق على محور الجنين فى أكثر من ٩٧٪ من الحالات فى المجيئات الطولانية الرأسية أو المقعدية ويكون أحد قطبيه قريبا من الصلب والآخر قريبا من الترائب . إذن لم يعد هناك شك فى أن ضمير يخرج عائد إلى الإنسان) (١) .

(١) هذا المفسر هو الدكتور مأمون شقفة فى كتابه (القرآن المكين) .

لكن الرأى العلمى والفقهى الصحيح، هو ما ذهبت اليه جمهرة العلماء والمفسرين، وهو أن الصلب والترائب هى مصدر خلق الإنسان.

وما هو الماء الدافق؟

يقول الحق تعالى ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْ مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى﴾ [القيامة: ٣٧]، ويقول ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦]؛ وهو ما يدلنا على أن المنى هو السائل أو الماء الذى يحمل النطف، وأنه هو المقصود بالماء الدافق.

وهنا يثور تساؤل: هل هو ماء الرجل وحده؟ أم هو ماء الرجل وماء المرأة؟. والواضح أن الحق سبحانه لم يخص أحدهما بالذكر، فلا بد من أن يكون المقصود هو ماء الرجل وماء المرأة معا.

وقد روى مسلم فى صحيحه جوابا للنبي صلى الله عليه وسلم على يهودى سألته عن الولد، قوله: (ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله، وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنث بإذن الله). وجاء فى القاموس المحيط: المنى . . ماء الرجل والمرأة.

وهل يخرج الماء من صلب الرجل وترائب المرأة أم إنه يخرج من بين صلب الرجل وترائبها، وصلب المرأة وترائبها؟. انقسم المفسرون إلى طائفتين، لإحادهما قالت بأن الماء يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، وقالت طائفة أخرى إن ماء الرجل يخرج من بين صلب الرجل وترائبها، وماء المرأة من بين صلبها وترائبها. والرأى الأخير هو الصحيح.

هل الصلب والترائب كناية؟

هناك رؤية جديدة خرج بها الدكتور داود سلمان السعدى، فى كتابه الرائع (أسرار خلق الإنسان. العجائب فى الصلب والترائب)، مؤداها أن الصلب والترائب قد جاءت كناية مقصودة، والكناية فى هذه النقطة غير جديدة فقد ذهب

الشيخ حسنين مخلوف فى كتابه (صفوة البيان فى تفسير القرآن) إلى أن الصلب والتراتب «كناية عن البدن كله» .

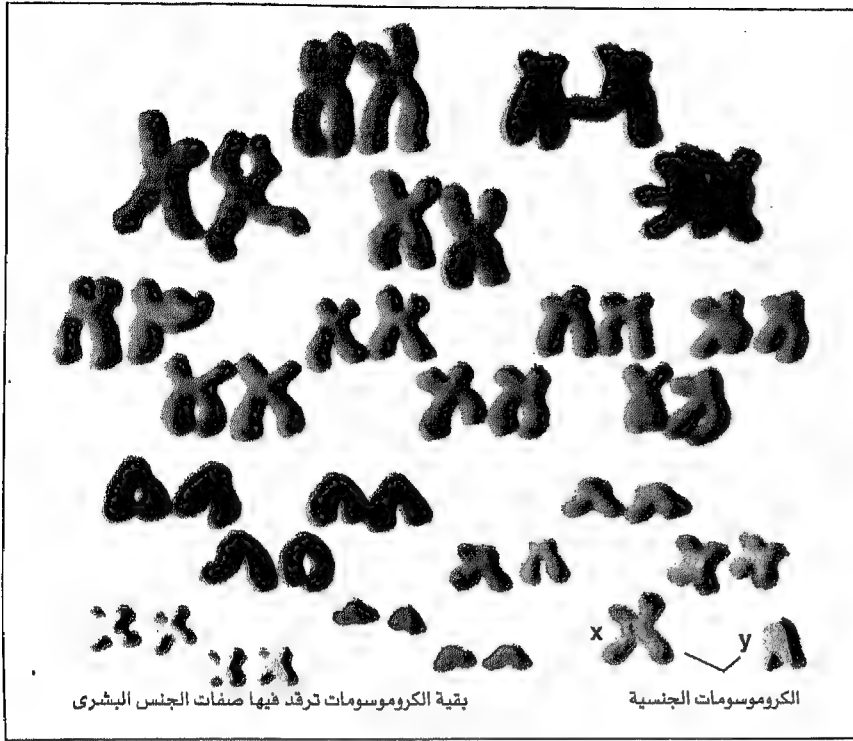
تذهب هذه الرؤية إلى أن التعبير بالكناية - أو الاصطلاح - قد جاء لأن الناس لم يكونوا عارفين أو متهيئين لمعرفة حقائق التناسل والوراثة، مما قد انكشفت عنه الحجب بعد ذلك آيات من الله تعالى للناس، فإذا كان الأمر كناية فلا بد من أنه ينحصر فى أشياء مما نعرفه الآن على وجه اليقين .

فى ضوء ذلك نجد أن كل خلية من خلايا جسم الإنسان تنمو ثم تشيخ ثم تموت، وهى - من أجل البقاء - تتكاثر بالانقسام إلى خليتين اثنتين، تحمل كل منهما العدد الأصلى من الكروموسومات، أى ٢٣ زوجا منها، وهذا يسمى بالانقسام الاعتيادى (الكروموسومات - أو الجسيمات الملونة أو الصبغيات) (شكل ٤). على أن هناك انقساماً من نوع آخر، لا يحدث إلا للخلايا الجنسية، فى الخصيتين والمبيض، وهو ما يسمى بالانقسام الاختزالى (شكل ٥) الذى ينتصف فيه عدد الكروموسومات الموجودة فى كل خلية ناتجة فيصبح ٢٣ كروموسوما فقط؛ والغرض من ذلك طبعاً هو التكاثر .

فعند اتحاد خلية للذكر من هذا النوع (نطفة الذكر) بأخرى للأنثى (نطفة الأنثى) تنتج خلية جديدة هى النطفة الأمشاج، والتى تعود مرة أخرى فتحوى على العدد الأصلى نفسه الموجود عند الإنسان من الكروموسومات وهو ٢٣ زوجاً (١).

وعند الطفل الذكر تحتوى الخلية على خلايا نطفية ابتدائية (شكل ٦) تحتوى كل منها على ٤٦ كروموسوما مرتبة فى ٢٣ زوجاً، وكل زوج يتكون من كروموسومين متشابهين تماماً فى شكلهما الخارجيين، إلا الزوج الثالث والعشرين، فإنه يتشابه فى النطفة الأنثى ويرمز له بالحرفين (XX)، ولا يتشابه فى النطفة الذكر، ويرمز له بحرفي (XY) وقد اصطلح على كتابة التركيب الذكري للكروموسومات كما يلى (46 XY) وللأنثى منه (46 XX) .

(١) فى هذه النقطة يقول د. أحمد شوقى إبراهيم: يتبدئ خلق الإنسان فى الدنيا نطفة فى رحم أمه، وتحمل هذه النطفة عوامل الوراثة من كل من الأب والأم، وفى كل من البويضة من الأم، والحيوان النوى فى الأب، ثلاثة وعشرون كروموسوما تحمل عوامل الوراثة ويتحدان معاً، ويكونان النطفة التى تحمل ستة وأربعين كروموسوما تحمل عوامل الوراثة من الأب والأم.

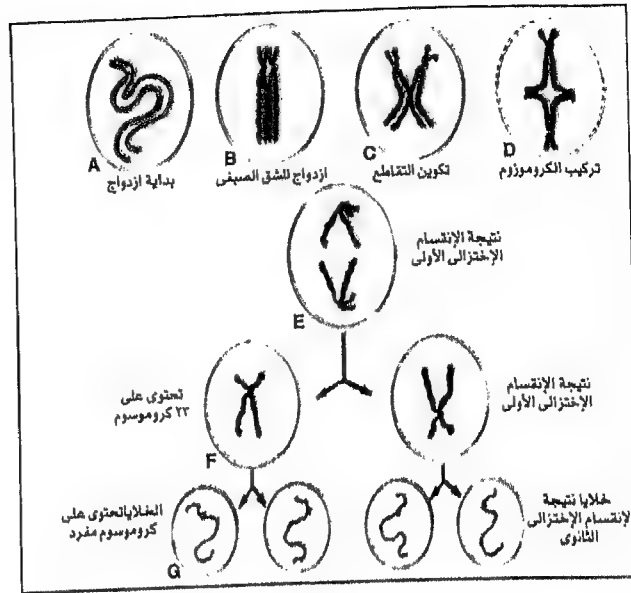


(شكل ٤) الكروموسومات البشرية والجنسية (X - Y)

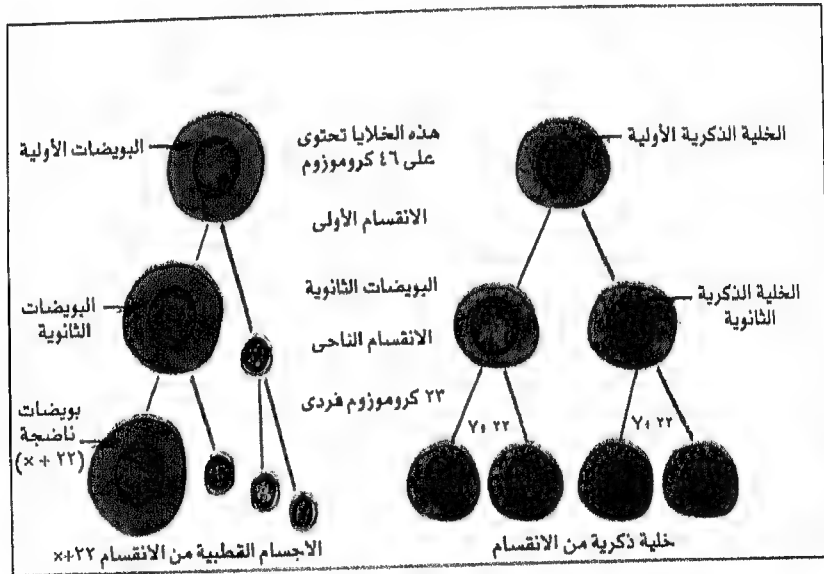
وعند اتحاد نطفة الرجل المذكرة (23Y) بنطفة المرأة (23X) ينتج (46XY) أى ولد ذكر. أما عند اتحاد نطفة الرجل المؤنثة (23X) بنطفة المرأة (23X) فينتج (46XX) أى وليدة أنثى.

وتخلص رؤية د. السعدى إلى احتمال جديد وهو أن يكون الصلب هو الكروموسومات الجسدية، وتكون الترائب هى الكروموسومات الجنسية. فهل قصد الحق سبحانه إلى أن الماء الدافق قد استل من الكروموسومات الجسدية، وهى متشابهة لدى الذكر والأنثى، ومن الكروموسومات الجنسية، وهى مختلفة لديهما؟

بعد هذا التساؤل تتجه الرؤية الجديدة إلى أن الصلب معناه - لغويا فى القواميس - ماكان على شكل خطين متقاطعين، وأن المتصالب هو المتقاطع، وهو ما يجىء بالشكل الذى يمثله حرف X. ولو أننا نظرنا إلى صورة للعمود الفقرى للإنسان



(شكل ٥) الانقسام الإختزالي للكروموسومات



(شكل ٦) شكل يبين انقسام خلايا الخصية والمبيض حتى تتكون النطفة الذكرية والأنثوية

لوجدنا أن كل ٤ نتوءات مستعرضة تعطينا شكلا هو <> ومجموعها هو ٢٢ شكلا لها الصورة نفسها . على ذلك يكون لدينا ٢٢ <> وهو عدد شكل الكروموسومات الجسدية فى نقطة الإنسان . ويمكن أن يكون هذا العدد هو ٢٢ X متصالبا .

وأما الترائب - أو الأضلاع - فهى موجودة بصورة زوجية ، إذن لكل ضلع ضلعا آخر يقابله ويمثله . والترائب - باعتبارها الأضلاع العليا الأربعة من كل جهة ، تتصل مع بعضها من خلال عظم القفص فى وسط الصدر ، لتكون - كما يقول التعريف اللغوى - موضع القلادة من الصدر . وضلعان عن اليمين ، مع ما يقابلهما عن اليسار ، يرسمان شكلا قريبا جدا إلى شكل الكروموسوم ، بل هو أقرب إليه جدا من الشكل الآخر ، الذى هو شكل حرف (X) .

فإذا كانت الترائب زوجية وعديدة (والصلب واحد) فلا بد من أن تكون الترائب هى الكروموسومات الجنسية .

أى أن الصلب يدل على الكروموسومات الجسدية لنطفة الذكر أو الأنثى ، وعددها (٢٢) . والترائب تدل على الكروموسومات الجنسية ، وعددها (واحد) فى كل من نطفة الذكر والأنثى .

وفى حين تحتوى كل نطفة من المرأة دائما ، على الكروموسوم المؤنث (X) ولا تحتوى على النوع (Y) منه ، فإن نطفة الرجل قد تحوى الكروموسوم المذكر (Y) أو على الكروموسوم المؤنث (X) أى أن كروموسوم نطفة الرجل ، فى كونه إما من النوع (Y) أو (X) ، هو الذى يحدد جنس الجنين .

فالكروموسومات الجسدية نوع واحد ، وكذلك هو جسم الإنسان ، ذكرا كان أم أنثى . وأما الكروموسومات الجنسية فهى من نوعين اثنين ، وكذلك هو جنس الإنسان ، فى ذكوره وأنوثته .

وقل لى - رحمك الله - (كما يقول د . السعدى) ما الذى يميز الحيوان المنوى لأى رجل عن الحيوان المنوى لأى رجل آخر ، أو أى بيضة أنثى عن أية بيضة أخرى ، وتحت أقوى المجاهر ؟ لا يوجد فيها أى فرق إلا فيما تحويه من الكروموسومات . إن الحيوان المنوى أو البيضة ما هى إلا وسيلة نقل ، أو عربة ،

مجرد عربة، الغرض منها توصيل الكروموسومات، التي تحتوى ٥٠ ألف مورث (جين)، من الآباء إلى الأبناء.

وللتدليل عن رؤيته، يستشهد د. السعدى بقول الحق: ﴿وَحَلَّالُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، أى من كروموسوماتكم الجسدية، والله تعالى أعلم. إذ ليس هناك اليوم، أقوى وأدق من فحص الشفرة الوراثية فى تثبيت بنوة الولد لأبيه. كما يستشهد بقوله تعالى: ﴿أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ولم يقل أبناءكم الذين من صلابتكم وتراثكم، لأن الولد إذا كان صلب أبيه (أى من كروموسوماته الجسدية) فهو ولده كائنه ما كانت الأم، التي لا يهم من تكون فى هذه الحالة. وبعد . . .

فهذه رؤية جديدة فى تفسير مصطلح «الصلب والتراث»، حاول صاحبها أن يجتهد فيها بأسانيد علمية حديثة، تحتل الصحة والصواب. وقد حرصت على أن أورها فى هذا الفصل لما تنطوى عليه من أهمية واضحة. وكل ما أملته ألا أكون قد أجهفت صاحبها حقه بهذا الاختصار والإيجاز الشديدين.

* * *

ويبقى لى فى هذا المجال أن أضيف بعضا من المعلومات الهامة التي أراها مكملية لهذه الرؤية التي عرضتها؛ دونما حاجة إلى تكرار المعلومات العلمية الدقيقة التي وردت فى سياق العرض، والتي أتفق معها تماما فيما يتعلق بالكروموسومات، وبالخلايا، وبالاتقسام العادى لهذه الخلايا والاتقسام الاختزالى لها.

وأقول - فى هذه الإضافة - إن الكروموسومات، أو الصبغيات، لم يصل العلم الحديث إلى اكتشافها هى وبعض أسرارها إلا فى القرن العشرين^(١). إن هذه الـ ٢٣ زوجا من الكروموسومات تحمل كل أسرار التكوين والوراثة وتقود عمل الخلية، ورغم ذلك فإن حجمها بالغ الدقة (واحد على المليون من المتر) لا تدركه إلا أكبر الميكروسكوبات الإلكترونية. (شكل ٤).

(١) البروفسور Morgan مكتشف دور الكروموسومات والجينات عام ١٩١٢.

ولم يستطع العلم الحديث التوصل إلى التركيب الكيميائي DNA (د. ن. أ.) لهذه الجسيمات إلا في منتصف هذا القرن^(١). واتضح أن هذا التركيب مكون من أربع قواعد نيتروجينية هي: أدنين - جوانين - سامتوزين - ثايمين. ويتصل كل واحد من هذه القواعد الأمينية بإحدى السكريات الناقصة الأوكسجين.

ويقوم الـ DNA بالتحكم في نشاط أى خلية وتوجيهها لتنفيذ ما يجب عليها بأمر خالقها، ملتزمة ومبرمجة، بحيث لا يمكن أن تقوم بأى عمل آخر، وذلك فى وقت وزمن محددين لا تحيد عنهما، وذلك عن طريق رسول معين. ويتكفل الـ DNA بصنع ما يسمى بتنفيذ هذه الأوامر بصنع مختلف الأنزيمات والبروتينات حسب الأوامر والشفرات التى يحملها إليها الرسول. وتتحكم هذه الأوامر فى صناعة عشرين حمضا أمينيا، وتصوغ منها آلاف المركبات الأمينية المعقدة.

ولا أظننى فى حاجة إلى تكرار الحديث عن قضية حسمها القرآن الكريم بإعجاز علمى ساطع، ألا وهى من الذى يحدد نوع الجنين وجنسه ذكرا أم أنثى. فالحيوان المنوى للرجل هو الذى يحدد - بإرادة المولى - هذا القرار؛ إذ إنه يحمل شارة الذكورة (Y) وشارة الأنوثة (X)، فإذا لقح الحيوان المنوى المذكر البيضة (Y) كان الجنين ذكرا، أما إذا لقح البيضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة (X)، فإن نتيجة الحمل هى أنثى، بمشيئة الله.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦]

(أى نطفة الرجل)

والآن، وبعد أن عرفنا نقطة البداية فى الخلق، ومن أين فى الجسم تنطلق إشارة البدء، من بين الصلب والترائب، نتابع رحلتنا مع الخلق فى أطواره المتتابعة.

(١) البروفسور Crick c. Watson عام ١٩٥٣.

الفصل السادس الطور الثانى مرحلة النطفة

تمهيد

حديثنا فى هذا الفصل يدور حول «النطفة» بوصفها واحدة من مراحل الخلق الإلهى المعجز . وقد وردت النطفة فى القرآن الكريم فى سياق عديد من الآيات ؛ حيث تكرر ذكرها إحدى عشرة مرة ، فى إشارة واضحة للحيامن والبييضات ، وسميت الواحدة بالنطفة ، مذكرة كانت أم مؤنثة . وسميت البيضة الملقحة بالنطفة الأمشاج ، وذكرت على هذا النحو مرة واحدة فى الآية (٢) من سورة الإنسان . ولأن القرار المكين للنطفة يكون فى رحم المرأة ، فقد كان ضروريا أن نستهل الحديث عن النطفة بمقدمة ضرورية عن الرحم .

بدون المرأة لا يكون الإنجاب

فالمرأة هي محل الحرث .

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]

وفي رحم المرأة يكون القرار المكين ؛ الذى يحتضن الحمل .

ومن عجائب الخلق - وهى كثيرة - أن الأعضاء الجنسية الداخلية والخارجية لدى المرأة تتكون وتكتمل فى الشهر الخامس تماماً من عمرها . وتتكون البويضات فى المبيض عند الأنثى فى شهرها الخامس ، فيصبح المبيض محتوياً على خمسة ملايين بيضة (!!). وتأخذ هذه البويضات فى التناقص ، من الولادة حتى سن البلوغ ، فيتبقى منها فى المبيض حوالى ثلاثين ألفاً . وفى كل شهر تنمو بعض البويضات ، لكنه لا يكتمل منها إلا واحدة فقط ، تكون عادة على استعداد للإخصاب بعد خروجها من المبيض ، لاحتمال ملاقة الحيوان المنوى فى الجزء الوحشى من قناة الرحم .

ويستمر الرحم فى دورته الشهرية فيحيز كل شهر نتيجة للتغيرات التى تحدث فى الغشاء المبطن وأوعيته الدموية . . فينمو كل يوم من أيام الشهر على أمل أن يأتى اليوم الموعود لاستقبال البيضة الأمشاج (البلاستوسيت) . وعندما لا يحدث ذلك ، تضيق كل هذه الاستعدادات سدى ، ويلفظ الغشاء المخاطى ويحدث الحيض . وتبدأ مرحلة ثانية من النمو بعد ذلك أملاً فى أن يحدث حمل ويتقبل النطفة الأمشاج فى الشهر التالى .

وقد أمكن بالتقنية الحديثة (الفحص المجهرى والتصوير بالموجات الصوتية العادية والملونة والدوبلر الملون) دراسة هذه التغيرات ، وأمكن معرفة ما يحدث للرحم

وغشائه والأوعية الدموية التى تشكل قرارا مكينا يحافظ على حماية الجنين وتغذيته ونموه بقدره الله .

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾
[الرعد : ٨]

وعندما تحمل المرأة يحدث التغير الأعظم فى الرحم .

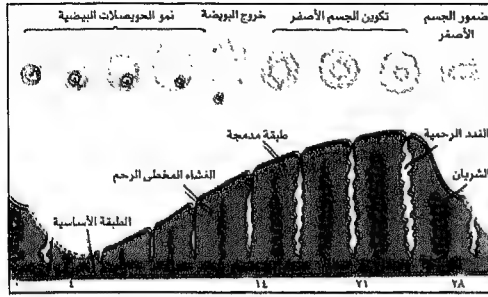
فالغشاء المبطن للرحم يزداد حجمه من نصف ملليمتر إلى ثمانية ملليمترات . وتنمو الأوعية نموا كبيرا حتى تصبح حلزونية الشكل من فرط طولها (شكل ٧) . ويزداد عدد الغدد الرحمية وتصبح على شكل أنابيب طويلة . وكل ذلك بفضل السيمفونية الرائعة التى تشارك كل أجهزة الجسم فى عزف نغماتها ، ومنها الهرمونات التى تتحكم فى الأطوار المختلفة أثناء شهور الحمل التسعة ، مثل الإستروجين والبروجسترون وكذا هرمونات الغدة النخامية .

وهكذا تنهى التربة الخصبة كى تتلقى الزرع والغرس الجديدين . (شكل ٨)

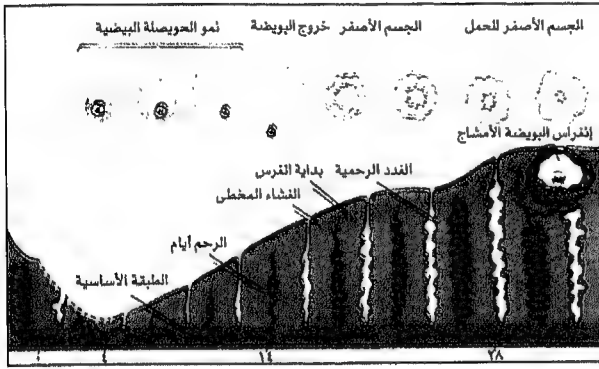
نعم . . إنها تربة تستعد للحرث والغرس ؛ لكى تنفذ إرادة خالقها القائل ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ . وتغرس البذرة الجديدة ، فتعلق بجدار الرحم ، (شكل ٩) لتجد أن غذاءها اللازم لنموها قد توافر فى جدران هذه التربة بالأوعية الدموية وأنابيب الغذاء .

ويستمر النمو الهائل للرحم ، فيزداد وزنه من خمسين جراما ، إلى ألف جرام ، ويبلغ حجم ما يحمله بداخله خمسة آلاف جرام (منها ٣٥٠٠ جرام وزن الجنين عند نهاية الحمل ، و ١٠٠٠ جرام وزن السائل الأمينوسى المحيط بالجنين ، و ٥٠٠ جرام وزن المشيمة) . وينمو الغشاء المبطن للرحم مكونا طبقة ثخينة تسمى الساقط ، لأنها تسقط مع الأغشية عقب الولادة .

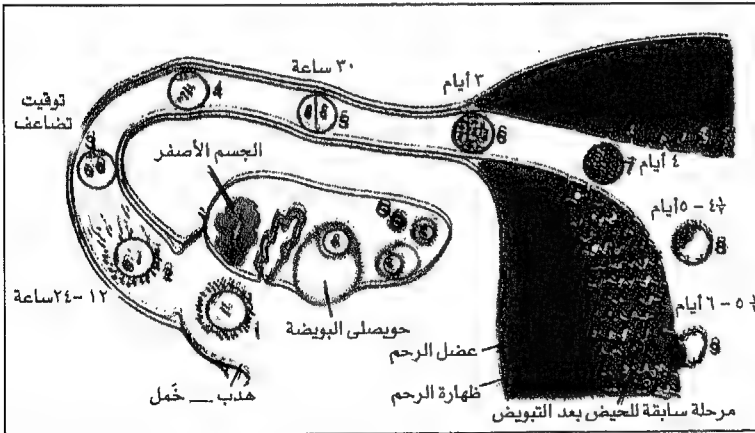
وما إن ينتهى الحمل ، بالولادة أو السقوط ، حتى يعود الرحم أدرجه خلال فترة النفاس إلى ما كان عليه ، صغير الحجم لا يتسع لأكثر من ملليمترين ، خفيف الوزن لا يزيد عن خمسين جراما .



(شكل ٧) نمو الغشاء المبطن للرحم وأوعيته وغدده قبل انغراس النطفة الأمشاج



(شكل ٨) الغشاء المبطن للرحم بعد اكتمال نموه حتى يصبح تربة خصبة للغرس



(شكل ٩) مرور البويضة الملقحة (الأمشاج) حتى تصل لموضع انغراسها بجدار الرحم

وببقى أن نتحدث عن الغريزة، التي يترتب عليها وجود النطفة .
فمنذ بداية الخليقة والحياة تجدد نفسها، من جيل إلى جيل ، بالعلاقة بين
الجنسين : الذكرى والأنثوى .

وقد بدأت هذه العلاقة الغريزية منذ بلايين السنين في المخلوقات البحرية، حيث
يفرز الحيوان الذكرى خلاياه الذكرية فى المياه ليمتزج بالخلايا الأنثوية . وعلى مر
السنين تطورت الحياة لتجد طرقا مختلفة للتكاثر، بعلاقة أكثر عمقا بين الذكر
والأنثى .

إن القوة الغريزية التي تجذب الرجل إلى المرأة، كما يحدث لدى مختلف
المخلوقات على الأرض، تستجيب إلى شعور بيولوجى داخلى عميق فى الجسم
البشرى لا يثور إلا فى ظروف معينة . وهذا الشعور البيولوجى يتحكم فيه مواد
كيمياوية منشطة، تسمى «فيرومينا»، هى التي تدعو إلى الجاذبية الجنسية بين الذكر
والأنثى، يتحكم فيها الاختيار والجاذبية .

بل إن الرحم، عند الجماع، يشتد شوقه إلى المنى حتى إن الإنسان يحس فى
وقت الجماع كأن الرحم يجذب إحليله إلى داخله . وتلك حقيقة مؤكدة يشعر بها
الجميع، وقالها منذ مئات السنين العلامة الفخر الرازى فى «المباحث الشريفة» .
كانت هذه مقدمة ضرورية للدخول فى الحديث عن النطفة .



لفظ النطفة فى القرآن الكريم

تكرر لفظ النطفة^(١) فى كثير من سور القرآن الكريم (فى اثنى عشر موضعا) .
وسنلاحظ فى هذه السور بيانا واضحا بأن بداية خلق الإنسان كانت من تراب ثم من
«نطفة»، بكل وضوح . وفى بعض الأحيان يذكر القرآن الكريم أن خلق الإنسان
كان من «نطفة» . ويتنوع الخطاب حول النطفة، فيتوجه الله العزيز الحكيم أحيانا

(١) راجع الفصل الرابع الخاص بمراحل الخلق لتجد نصوص الآيات التى ذكر فيها لفظ النطفة كاملة .

بالخطاب مباشرة إلى الإنسان ﴿ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [الكهف: ٣٧]، وفي موضع من القرآن يتحدث المولى عز جلاله بصيغة الخبر ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢] وفي موضع آخر يأتى الحديث بصورة عامة ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [النحل: ٤].

تعريف «النطفة» لغويا

- بمراجعة قواميس اللغة العربية ومراجعها (مثل لسان العرب، وتاج العروس) نجد أن «النطفة» فى اللغة العربية تطلق على عدة معان منها:
 - القليل من الماء الذى يعادل قطرة.
 - صغار اللؤلؤ، وواحدتها نطفة، ونطفة شبهت بقطرة الماء.
 - عندما تنظف آذان الماشية أى تبتل بالماء فتقطر.
 - وجاء فى حديث شريف «فلم نزل قياما ننتظره حتى خرج إلينا وقد اغتسل ينظف رأسه ماء».
 - وفى حديث آخر «جاء رجل يهودى يمتحن نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: يا محمدم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا يهودى من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة».

أنواع النطفة

النطفة أنواع ثلاث:

- ١ - النطفة المذكرة: وهى الحيوانات المنوية الموجودة فى المنى والتى تفرزها الخصية.
- ٢ - النطفة المؤنثة: وهى البيضة التى يفرزها المبيض كل شهر.
- ٣ - النطفة الأمشاج: وهى النطفة المختلطة من الحيوان المنوى الذى يلحق البيضة، أى البيضة الملقحة.

ورد لفظ المنى فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع . ويطلق لفظ المنى على الإفرازات التناسلية للرجل والتي تفرزها الخصية والبروستاتا والحويصلة المنوية . والمنى مكون من شيئين :

الأول : هو الحيوانات المنوية التي تتكون من القنوات المنوية فى الخصية . . وهى ذاتها المسماة بالنطفة .

والثانى : هو السائل المنوى الذى يحمل هذه الحيوانات ويغذيها والذي تسبح فيه حتى تصل إلى الرحم (١) .

وتعالوا بنا نتجول مع النطفة فى رحلة تطوراتها ، التي تبدأ من الجوين المنوى والبيضة وتنتهى بالحرث والانغراس .

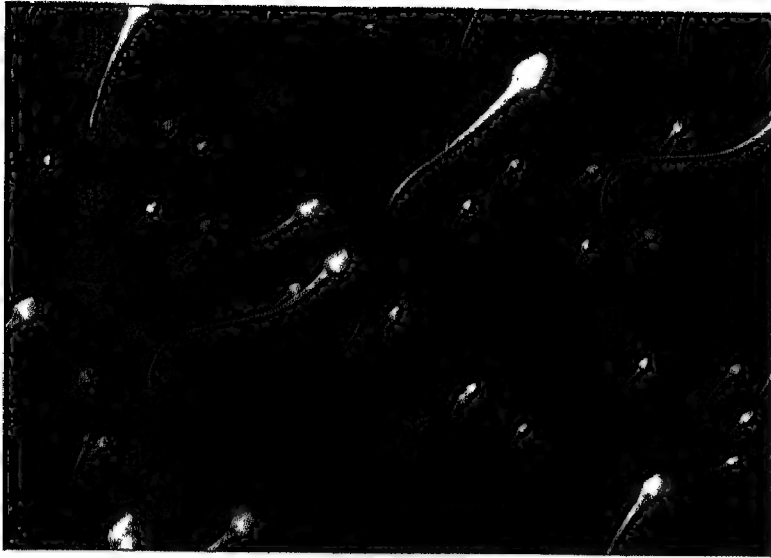
يقول سبحانه فى سورة الطارق (٦) ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ . وتلك حقيقة علمية مؤكدة وهى أن ماء الرجل يخرج متدفقا . سبحانه الله الذى خلق وقال فى وصف الماء بأنه دافق ، أسند التدفق للماء نفسه ، وهو ما يعنى أن للماء قوة دفع ذاتية .

ومن الأمور المعروفة والثابتة أن الدفقة الواحدة من المنى تحمل مائتى مليون حيوان منوى ، (شكل ١٠) وأن الذى يلحق البيضة هو واحد فقط من كل هذه الملايين من الحيوانات المنوية .

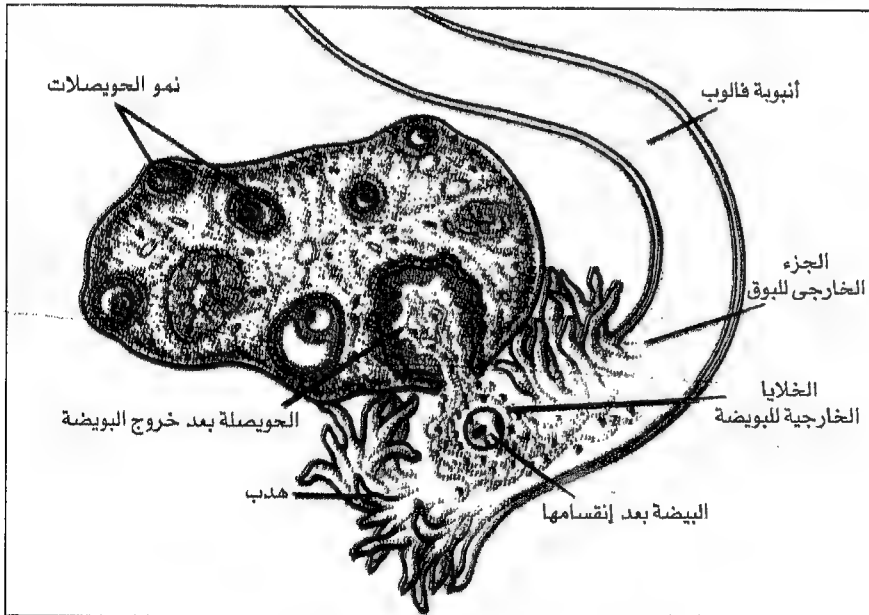
وكما أن هناك اختيارا واصطفاء للحيوان المنوى ، فهناك أيضا اختيار واصطفاء للبيضة . فنجد أن مبيض الطفلة ، وهى جنين فى بطن أمها ، يحتوى على ستة ملايين بيضة ، يموت الكثير منها عند خروج الطفلة إلى الحياة . ويتواصل اندثار هذه البيضات إلى أن تبلغ الفتاة المحيض فلا يتبقى لديها سوى ثلاثين ألفا . ولا يزيد عدد ما ينمو منها ويخرج من المبيض عن أربعمائة بيضة فى حياة المرأة كلها .

وقد احتاج العلم الحديث إلى قرون طويلة لكى يثبت فى النهاية ما قاله القرآن ، وهو أن المنويات التي يحتويها ماء الرجل لا بد أن تكون حيوية متدفقة متحركة كشرط أساسى للإخصاب . وأثبت العلم أيضا أن ماء المرأة الذى يحمل البيضة

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن . د . محمد على البار .



(شكل ١٠) جيش من الحيوانات المنوية فى دفعة واحدة تتجه للبيضة



(شكل ١١) خروج البيضة متدفقة إلى قناة الرحم

يخرج متدفقا إلى قناة الرحم (فالبوب)، وأن اندفاعة البيضاء لا بد أن تكون حيوية متدفقة حتى يتم الإخصاب. (شكل ١١)

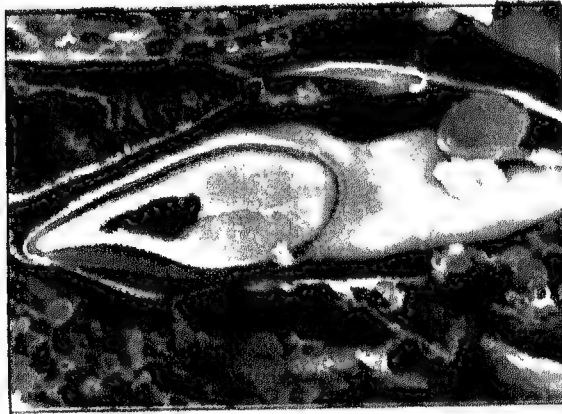
ولما كان لفظ «نطفة» يعنى الكمية القليلة من السائل، فإن هذا المعنى ينسحب على تلك الكميات من السوائل المتدفقة التى تخرج من الرجل والمرأة:

* فمن المعروف أن ماء الرجل يحتوى، بالإضافة إلى المنويات عناصر أخرى تشارك وتساعد فى عملية الإخصاب، منها البرستاجلاندين، التى تحدث تقلصات فى الرحم مما يساعد فى نقل المنويات إلى موقع الإخصاب.

* والى تجعل الحوين المنوى قادرا على الإخصاب، وذلك بإزالة البروتين السكرى من رأسه. وتعمل هذه الأنزيمات، بالإضافة إلى ذلك، على إطلاق الخلايا المحيطة بالبيضة وكشف غطائها الواقى أمام الحوين المنوى.

السلالة

يقول الخالق جل جلاله فى سورة السجدة ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]. والمراد بالماء المهين هنا (أى فى طور السلالة) ماء الرجل.



(شكل ١٢) صورة مكبرة للحوين المنوى ويظهر على شكل السمكة الطويلة

ولفظ «السلالة» - من الناحية اللغوية - يأتى بمعان منها :

❖ انتزاع الشيء وإخراجه فى رفق .

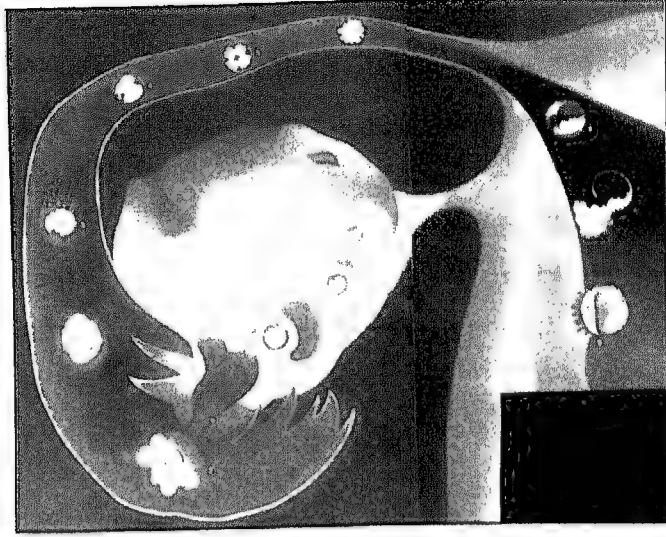
❖ ويعنى أيضا السمكة الطويلة .

وبنظرة فاحصة إلى الخوين المنوى نجد أنه «سلالة» تستخلص من ماء الرجل ، وعلى شكل السمكة الطويلة (شكل ١٢) ، ويستخرج برفق من الماء المهيّن .

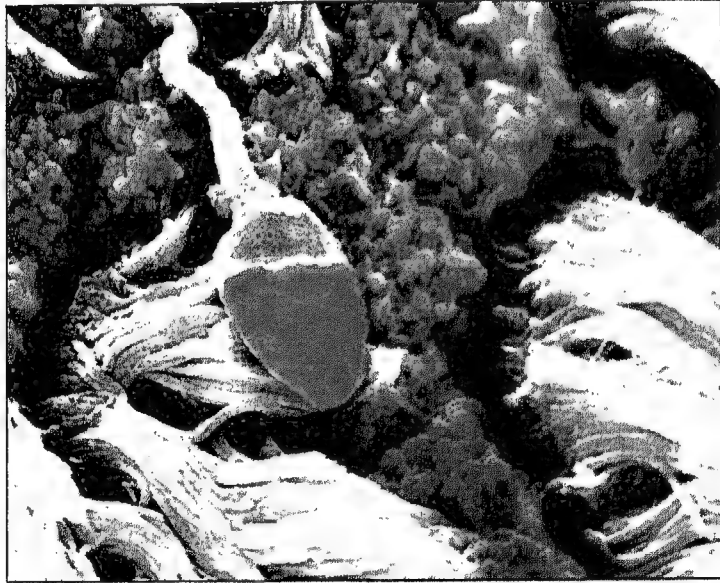
والتسلل هو التحرك فى خفاء ، والسلالة هى ما يحرك فى خفاء . والخفاء قد يتعلق بالشيء ذاته ، وقد يتعلق بالحركة ، وقد يكون كلاهما خفيا . والشيء يكون خفيا حين يكون مفرطا فى الصغر أو مفرطا فى الشفافية أو فى البعد أو حين يتخفى وراء غيره أو فى ثناياه . والحركة تكون مفرطة فى السرعة ، أو مفرطة فى البطء ، أو حين تحدث وراء ستار ، أو فى الظلام ، ولا تكون مصحوبة بما ينم عليها كالجلبة وشدة التأثير . وحين يكون التخفى بسبب بطء الحركة وانخفاض الصوت والتأثير فإنه قد يسمى (تلفظا) .

تحركات عجيبة تشهدها عملية الإخصاب

تتحرك نطفة الرجل فى منيه صعودا وهبوطا من المهبل فعنق الرحم فالرحم نفسه ثم البوق (قناة المبيض) (شكل ١٣) ، وحتى الثلث الخارجى منه ، أما صيوان البوق ، وهو نهايته الخارجية المتسعة ، فإنه يقترب من المبيض ويتلف الماء الدافق (منى المرأة) الذى يحوى نطفة المرأة ، وتسير هذه إلى الثلث الخارجى من البوق حيث تتم عملية المشج (الإلقاح) باتحاد نطفتى الذكر والأنثى وتكوين النطفة الأمشاج (الببيضة المخصبة) ؛ التى تسير نحو الرحم فى رحلة عكسية أمدها ثلاثة أيام ، حيث تكون بطانته مهيأة تمام التهيؤ لانغراس النطفة الأمشاج فيه ، حيث إنها تحفر لنفسها حفرة فيه ثم تنخلق عليها ؛ متمتعة بالتغذية المؤمنة والحماية الكاملة . والأمر اللافت للنظر أن فى البوق أهدابا تتحرك فيه نحو الجهة البرانية (الخارجية) حتى تسوق أنطاف الذكر نحو نطفة الأنثى (شكل ١٤) ، وأهدابا تتحرك فيه نحو الجهة الأنسية (الداخلية) منه لتسوق النطفة الأمشاج حيث قرارها المكين . وسبحان



(شكل ١٣) تحرك نقطة الرجل من المهبل فعتق الرحم فالرحم نفسه ثم إلى البوق



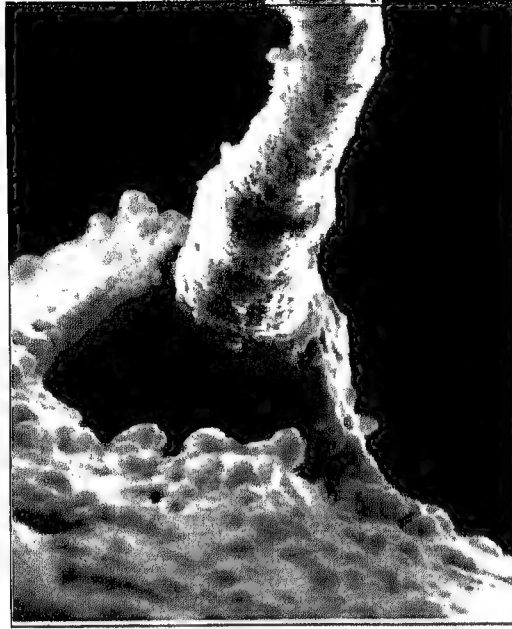
(شكل ١٤) الاهداب في البوق التي تتحرك وتدفع الحويين المنوى إلى الجهة الخارجية نحو نقطة الأنثى

الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه ، فجعل أهدابا تتحرك فى هذا الاتجاه وأخرى تتحرك عكسه .

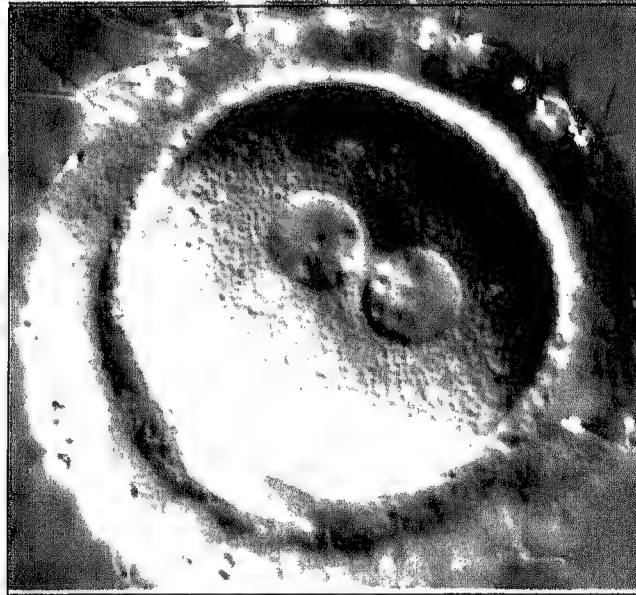
خلال هذه الرحلة ، لا يصل من ماء الرجل إلا القليل ، حيث يخترق حوين منوى واحد الببيضة ، ويعقب ذلك مباشرة حدوث تغير سريع فى غشائها يمنع دخول بقية الحيوانات المنوية . وصلاة وسلاما عليك يا سيدى يا رسول الله يا من عرفت - وأنت النبى الأمى - وأبلغت الناس بأن الإخصاب لا يحدث من كل ماء الذكر ، فقلت «ما من كل الماء يكون الولد» [صحيح مسلم] . صلاة وسلاما عليك يا من لا ينطق عن الهوى ، عرفت أن الخلق من الماء من خلال اختيار خاص ، فحددت بكل دقة هذه المعانى التى لم يتوصل إليها العلم الحديث إلا من بضع عشرات من السنين .

هكذا تكون يد القدرة قد تدخلت واختارت واحدا من هذه الأعداد الهائلة من الحيوانات المنوية لتفتح له الببيضة كوة فى جدارها (شكل ١٥) ، فى حين تفشل كل الحيوانات المنوية الأخرى فى الدخول . وتشير بعض الأبحاث أخيرا إلى أن الحيوان المنوى والببيضة يحتاجان لعدة ساعات حتى يكتسبا القدرة على التلاقح والتزاوج .

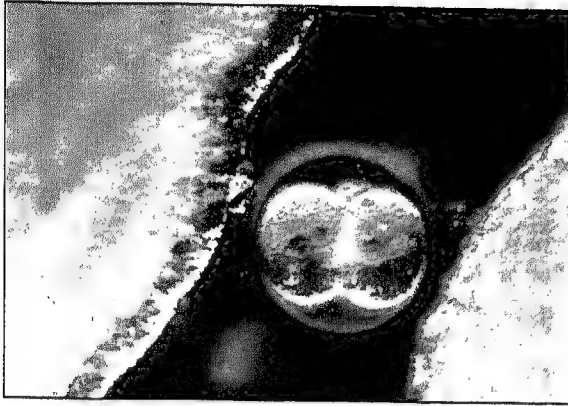
وهنا قد يشور تساؤل هو : لماذا الببيضة كبيرة الحجم بينما الحيوان المنوى متناه فى الصغر ؟ (شكل ١٦) ، وردا على ذلك تقول الحقائق العلمية إن الببيضة هى أكبر خلية فى جسم الإنسان ، فهى تبلغ فى قطرها ٢٠٠ ميكرون ، بينما لا يزيد الحيوان المنوى عن خمسة ميكرونات . ومع هذا فإن الحيوان المنوى يسهم بنصف مكونات الجنين تماما بنفس قدر إسهام الببيضة . وتفسير هذه الظاهرة هين ، فالببيضة هى المسئولة عن تغذية هذه النطفة الأمشاج المكونة من كروموسومات الحيوان المنوى (الأب) وكروموسومات الببيضة (الأم) ؛ وهى المسئولة عن تغذية النطفة الأمشاج حتى تبلغ مرحلة العلوق بجدار الرحم . وكلمة أمشاج - من الناحية العلمية - دقيقة تماما ، فهى صفة جمع تصف كلمة «نطفة» المفردة ، التى هى عبارة عن كائن واحد يتكون من أخلط متعددة تحمل صفات الأسلاف والأحفاد لكل جنين . ثم تواصل نموها ، وتحتفظ بشكل النطفة ، ولكنها تنقسم إلى خلايا أصغر فأصغر تدعى قسيمات جرثومية (Blastomeres) . (شكل ١٧ ، ١٨ ، ١٩) .



(شكل ١٥) انفتاح كوة فى جدار البيضة بنجى واحد فقط من الحيوانات المنوية فى اختراقها



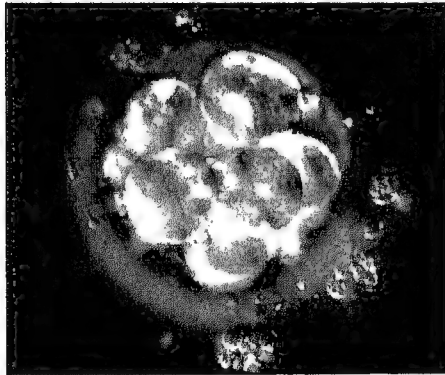
(شكل ١٦) يبين صفرا الحوين المنوى بالنسبة لحجم البيضة الكبير



(شكل ١٧) النطفة الأمشاج بعد نموها وانقسامها إلى خليتين (ثلاثون ساعة)



(شكل ١٨) النطفة الأمشاج وانقسامها إلى أربع قسيمات جرثومية (يومان)



(شكل ١٩) انقسام النطفة إلى أكثر من أربع قسيمات

وبعد أربعة أيام تتكون كتلة كروية من الخلايا تعرف بـ «التوتية» (Morula) (شكل ٢٠)

وبعد خمسة أيام من الإخصاب يطلق على النطفة اسم «كيس الجرثومة» (Blastocyst) (شكل ٢١)، مع انشطار خلايا التوتية إلى جزأين. (شكل ٢٢ و ٢٢ أ)

وبالرغم من انقسام النطفة في الداخل إلى خلايا، فإن طبيعتها ومظهرها لا يتغيران عن النطفة، لأنها تملك غشاء سميكا يحفظها ويحفظ مظهر النطفة فيها. وخلال هذه الفترة ينطبق تعبير «نطفة أمشاج» بشكل مناسب تماما على النطفة في كافة تطوراتها، إذ تظل كيانا متعددًا:

* فهي إلى هذا الوقت جزء من ماءى الرجل والمرأة،

* وتأخذ شكل القطرة فهي نطفة،

* وتحمل أخطا كثيرة فهي أمشاج.

الشيء اللافت للنظر حقا هو أن هذا الاسم للجنين في هذه الفترة شامل من كل النواحي، فهو يغطى الشكل الخارجى من ناحية، وكذلك حقيقة التركيب الداخلى من ناحية أخرى. هذا فى الوقت الذى لا يسعفنا فيه بهذه المعانى مصطلح مثل «توتية»، ولا تلك الأرقام المستعملة الآن لمحاولة التعبير عن هذه المعانى. تطورات النطفة الأمشاج

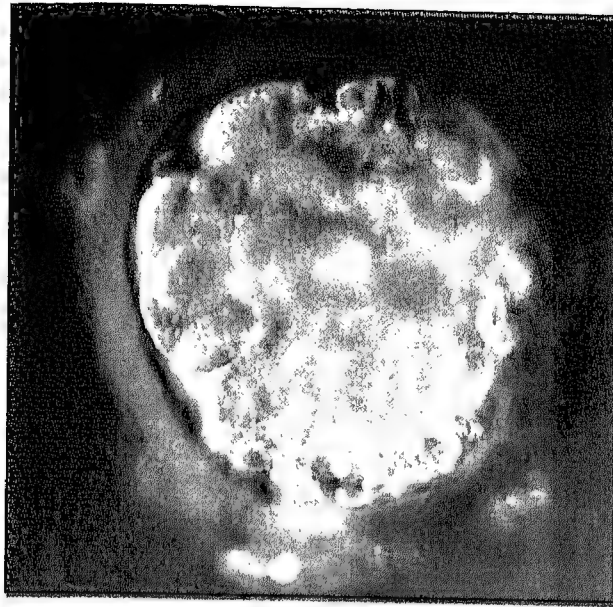
بعد أن تتكون النطفة الأمشاج تنتج عنها التطورات التالية:

أ — الخلق: وهو البداية الحقيقية لوجود الكائن الإنسانى.

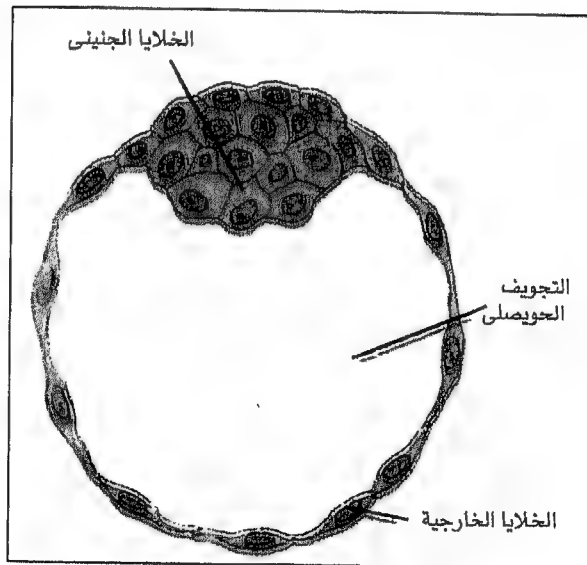
فيوجد فى الحوين المنوى (٢٣) حاملا وراثيا، ويوجد نفس العدد وهو (٢٣) حاملا وراثيا أيضا فى الببيضة.

ويندمج الحوين المنوى فى الببيضة لتكوين الخلية الجديدة التى تحوى عددا من الصبغيات (الكروموسومات) مساويا لما يوجد فى الخلية الإنسانية (٤٦).

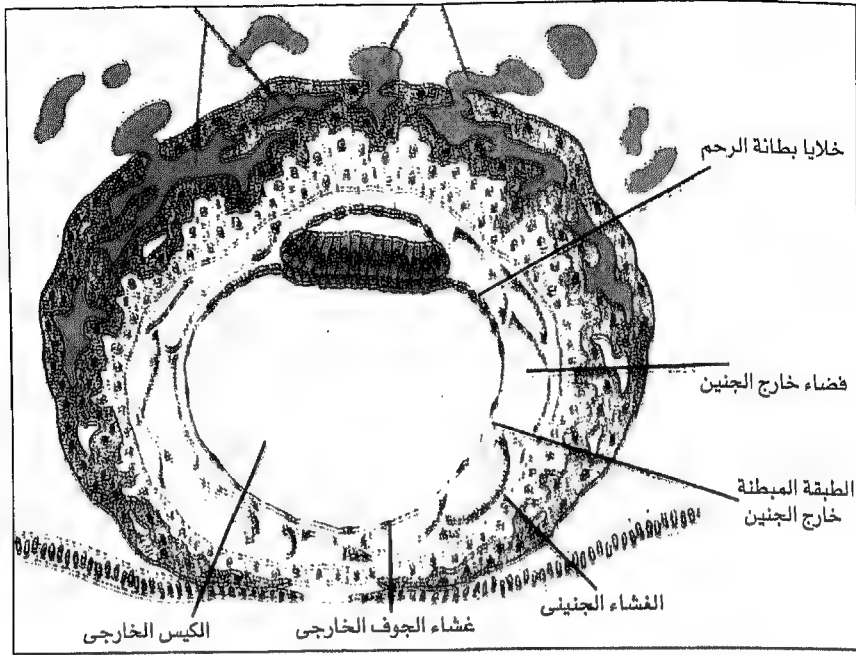
وبوجود الخلية التى تحمل هذا العدد من الصبغيات يتحقق الوجود الإنسانى،



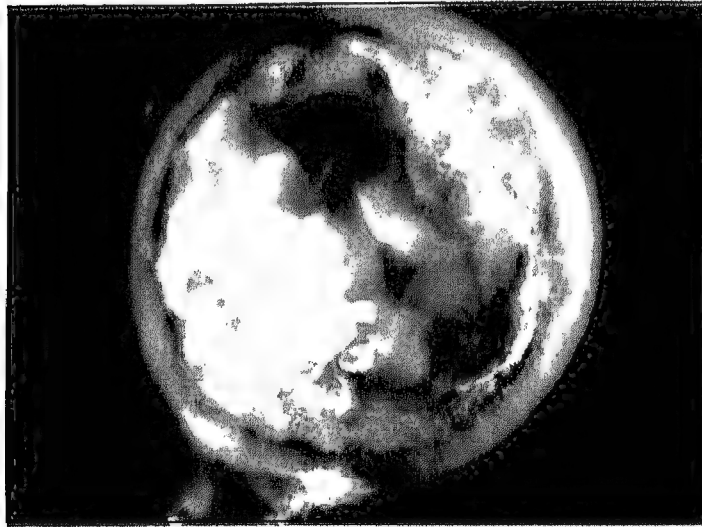
(شكل ٢٠) الثوتية وهي كتلة كروية من الخلايا بعد أربعة أيام



(شكل ٢١) كيس الجرثومة (خمسة أيام)



(شكل ٢٢-١٢٢) انشطار الخلايا الجرثومية إلى جزأين



ويقرر به خلق إنسان جديد، لأن جميع الخطوات التالية تركز على هذه الخطوة وتنبثق منها، فهذه هي الخطوة الأولى لوجود المخلوق الجديد.

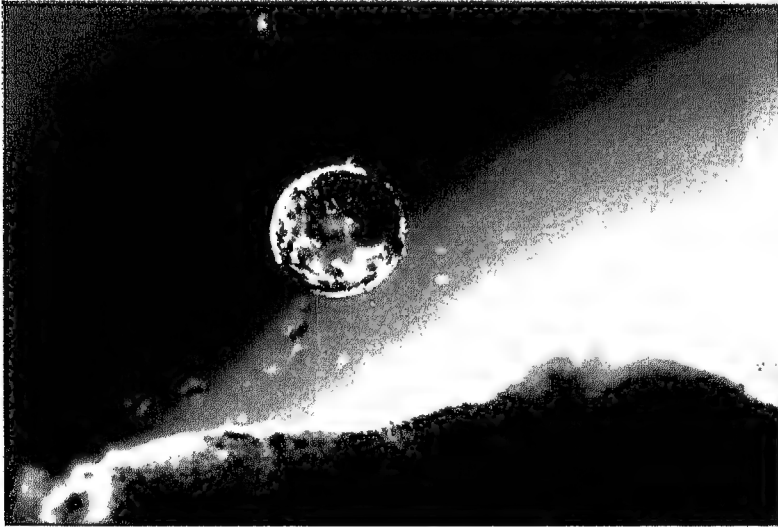
النطفة الأمشاج:

يذكر القرآن الكريم هذه المرحلة في قوله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] ومعنى «نطفة أمشاج»: قطرة مختلطة من ماءين.

وتأخذ البيضة الملقحة شكل القطرة، (شكل ٢٣) وهو ما يتفق مع المعنى الأول للفظ «نطفة» أى قطرة.

وهذه «النطفة الأمشاج» تعرف علميا عند بدء تكونها بـ «الزيجوت».

ولنتوقف لغويا أمام هذا التعبير، لنجد أن كلمة «نطفة» هي اسم مفرد، بينما كلمة «أمشاج» هي صفة فى صيغة الجمع، فى حين أن المفروض أن تكون الصفة تابعة للموصوف فى الأفراد والتثنية والجمع. وكان هذا التعبير واضحا عند مفسرى القرآن الكريم الأوائل الذين قالوا إن النطفة مفردة لكنها فى معنى الجمع.



(شكل ٢٣) البيضة الملقحة تأخذ شكل القطرة (نطفة)

هذا المعنى الذى بينه المفسرون الأوائل ، أصبح ممكنا للعلم الحديث اليوم أن يوضحه .

ب - التقدير (البرمجة الجينية):

يأتى التقدير - من الناحية اللغوية - بمعنى :

✽ التروية والتفكير فى تسوية أمر وتهيئته ،

✽ تقديره بعلامات يقطعه عليها ،

✽ أن تنوى أمرا بعقدك ، فتقول : قدرت أمر كذا وكذا أى نويت وعقدت عليه .
(لسان العرب) .

والتقدير ، بعد الخلق ، ذكرهما القرآن الكريم بوصفهما عمليتين متعاقبتين فى أول تطورات النطفة الأمشاج ، فى قوله تعالى ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿ [عبس : ١٧ - ١٩] .

وهذا هو ما يحدث بالضبط . . فبعد ساعات من تخلق إنسان جديد فى خلية إنسانية كاملة ، تبدأ عملية أخرى ، تتحدد فيها الصفات التى ستظهر على الجنين فى المستقبل (الصفات السائدة) .

كما تتحدد فيها الصفات المتنحية التى قد تظهر فى الأجيال القادمة . وهكذا يتم تقدير أوصاف الجنين وتحديداتها .
ج - تحديد الجنس:

فى إطار عملية التقدير التى تحدث فى النطفة الأمشاج ، يتم تحديد الذكورة والأنوثة . وهذا ما يشير إليه قول الحق تعالى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿ [النجم : ٤٥ ، ٤٦] .

فإذا كان الحوين المنوى الذى لمجح فى تلقيح البيضة يحمل الكروموسوم (Y) كانت النتيجة ذكرا ، وإن كان ذلك الحوين المنوى يحمل الكروموسوم (X) كانت النتيجة أنثى .

د- الحرث:

تبقى النطفة متحركة، وتظل كذلك حين تصير أمشاجا، وبعد ذلك - وبالتصاقها - تبدأ مرحلة الاستقرار التي أشار إليها الحديث النبوي «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين يوما . . » .

وفي نهاية مرحلة النطفة الأمشاج ينغرس كيس الجرثومة في بطانة الرحم بما يشبه انغراس البذرة في التربة في عملية حرث الأرض ؛ وإلى هذه العملية تشير الآية في قوله تعالى ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]

وبهذا الانغراس يبدأ طور الحرث ، ويكون عمر النطفة حينئذ ستة أيام .

وتنغرس النطفة (كيس الجرثومة) في بطانة الرحم بواسطة خلايا تنشأ منها ؛ تتعلق بها في جدار الرحم ، والتي ستكون في النهاية هي المشيمة ، كما تنغرس البذرة في التربة . (شكلا ٢٤ و ٢٥)

اللافت للنظر أن علماء الأجنة يستخدمون مصطلح (انغراس) في وصف هذا الحدث ، وهو يشبه كثيرا في معناه كلمة (الحرث) في اللغة العربية .

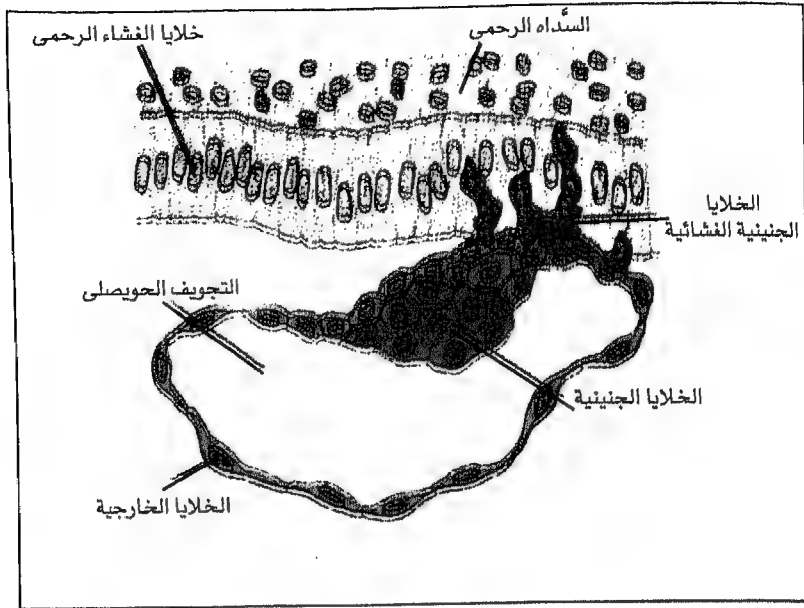
ومرحلة الحرث هي آخر مرحلة في طور النطفة ، وبنهايتها ينتقل الحمل من شكل النطفة ، ويتعلق بجدار الرحم ، لتبدأ مرحلة جديدة ، وذلك في اليوم الخامس عشر .

الرحم أو القرار المكين

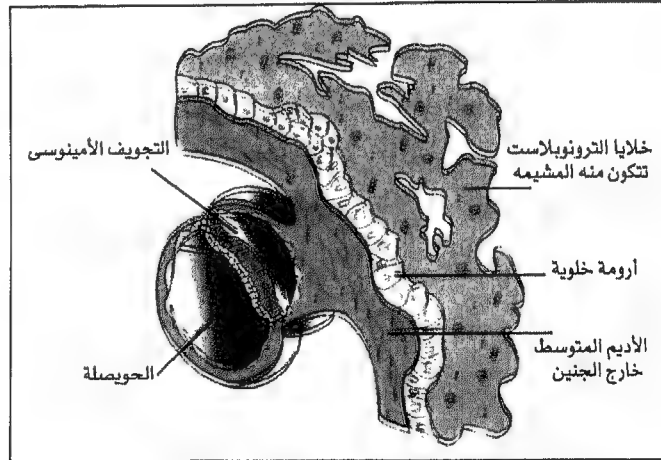
ولم يبق في هذه المرحلة من مراحل الخلق الإنساني ، إلا الحديث عن المكان الذي تستقر فيه النطفة في جسد المرأة .

سبحان من هذا كلامه ، فقد أعطى الله لهذا المكان وصفين جامعين في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٣] .

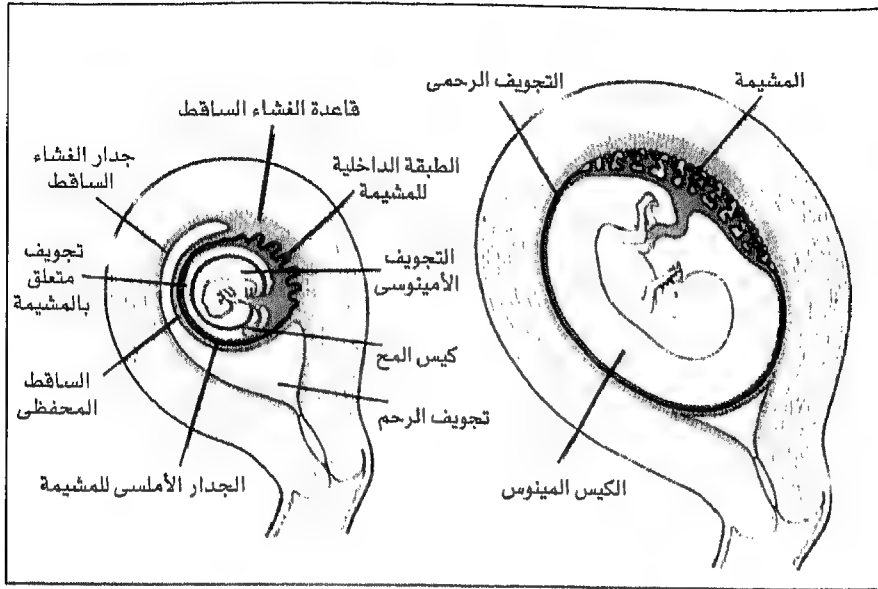
فالرحم هو مكان لاستقرار الجنين ، ومعنى «القرار» في قواميس اللغة (استقر واستراح) وهو أيضا (مكان يستقر فيه الماء ويتجمع) . ولهذا اختار القرآن الكريم تعبير «القرار» وصفا للمكان الذي تستقر فيه النطفة وهو الرحم .



(شكل ٢٤) انغراس النطفة (كيس الجرثومة) في بطانة الرحم وتتعلق بواسطة خلايا كما تنغرس البذرة في التربة



(شكل ٢٥) انغراس كيس الجرثومة في بطانة الرحم بواسطة خلايا تتكون منها المشيمة



(شكل ٢٦) الرحم (القرار) الذي ينمو حتى يارى الجنين ويغذيه ويتمدد ليتلاءم مع نمو الجنين وتتراثر الظروف للاستقرار

أى إعجاز هذا فى بلاغة الوصف !! . فالرحم للنطفة ، ولمراحل الجنين اللاحقة سكن لمدة تسعة أشهر . وبالرغم من أن طبيعة الجسم أن يطرد أى جسم خارجى ، فإن الرحم يأوى الجنين ويغذيه . وللرحم عضلات وأوعية رابطة تحمل الجنين داخله . وباعتبار أن الرحم «قرار» فإنه يستجيب لنمو الجنين ويتمدد بدرجة كبيرة ليتلاءم مع نموه^(١) . ويحاط الجنين داخل الرحم بعدة طبقات بعد السائل الأمينوسى ، وهى الغشاء الأمينوسى المندمج بالمشيمة ، وطبقة العضلات السميكة للرحم ، ثم جدار البطن ، وبذلك تتوافر أفضل الظروف للاستقرار والنمو الجيد . (شكل ٢٦) .

هذا عن «القرار» بوصفه تعبيراً جامعاً .

أما التعبير الجامع الآخر ، وهو «مكين» ، فيعنى (مثبت بقوة) ، وهذا يشير إلى

(١) « إذ إن حجم رحم الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من مليلترين ونصف ، بينما يتسع حجم الرحم ذاته فى نهاية الحمل لسبعة آلاف مليلتر » . (د . محمد على البار - خلق الإنسان بين الطب والقرآن) .

علاقة الرحم بجسم الأم، وموقعه المثالي لتخلق ونمو كائن جديد. ويقع الرحم فى وسط الجسم، وفى مركز الحوض، وهو محاط بالعظام والعضلات والأربطة التى تثبته بقوة فى الجسم^(٢). أى أنه ممكن، كما قرر القرآن الكريم.

وفوق النمو الهائل لحجم الرحم، والذي يصل إلى ثلاثة آلاف ضعف حجمه الأصلي، فإن وزن الرحم يزيد من خمسين جراما إلى ألف جرام. كذلك فإن ما يحمله فى طياته يبلغ خمسة آلاف جرام، منها ٣٥٠٠ جرام وزن الجنين عند نهاية الحمل و ١٠٠٠ جرام وزن السائل الأمينوسى المحيط بالجنين و ٥٠٠ جرام وزن المشيمة.

وهكذا نجد أن كلمتى «قرار» و «مكين» تعبران تعبيراً تاماً عن حقيقة الرحم ووظائفه الدقيقة، وعن العلاقة الحميمة بين الجنين والرحم، وبين الرحم وجسم الأم. وذلك إعجاز فى التعبير والوصف لا يدرك أهميته إلا المتخصص الذى له علم بحاجات نمو الجنين، وحاجات الرحم، لمواكبة هذا النمو حتى يخرج سليماً.

الخلاصة:

اختار القرآن الكريم اسم «نطفة» عنواناً على هذا الطور من أطوار التخلق الإنسانى. وهو اسم عربى يعنى القليل من الماء أو قطرة منه.

يبدأ خلق الجنين من قليل من ماءى الأب والأم، ثم يأخذ شكل القطرة فى مرحلة التلقيح (الزيجوت)، وقبل التلقيح ينسل الحوين المنوى من الماء المهين فىكون - كما قرر القرآن الكريم - سلالة من ماء مهين.

وشكل الحوين المنوى يشبه السمكة الطويلة، وهذا هو أحد معانى لفظ «سلالة» الذى استعمله القرآن الكريم لوصف هذه المرحلة.

وبالتلقيح بين الحوين المنوى والبيضة يكون الجنين فى شكل نطفة مكونة من

(٢) «يحفظ الحوض العظمى الرحم بداخله بحيث لا يصله شئ من الكدمات والهزات التى تتعرض لها المرأة». بل لو أصيبت المرأة فى حادث أو سقطت من شاطئ وتكسرت عظامها فإننا نجد الرحم، فى أغلب الأحوال، سليماً لم يمسه سوء». المصدر السابق

أخلاق ماءى الرجل والمرأة، وما فيهما من أخلاق وراثية . وهذا ما وصفه القرآن الكريم بأنه «نطفة أمشاج» ، فجاء معبرا عن الشكل «قطرة» ، وعن التركيب المفرد «نطفة» وعن الأخلاق المجتمعة فى «نطفة أمشاج» .

وأظهر القرآن الكريم أن المرأة هى محل الحرث ، حيث تنغرس النطفة فى العضو الخاص بالحمل عند المرأة ، وهو الرحم . بهذا الانغراس تبدأ النطفة فى التغير لتصبح بعد ذلك «علقة» .

وبين القرآن أن تلك النطفة تستقر فى جسم المرأة فى مكان وصف بأهم وصفين يتعلقان بالجنين ونموه ، وهذان الوصفان «قرار» و «مكين» ، يعبران أتم التعبير عن أهم خصائص الرحم ومميزاته .



وهكذا ، ومع مراحل الخلق البشرى وأطواره ، نجد أن القرآن الكريم يقدم لهذه المرحلة ، منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، تعبيرات دقيقة تصف كل تطوراتها ، بمظهرها الخارجى وتحواراتها الداخلية ، بما يتفق تماما وما توصل إليه علمنا المعاصر بعد كل هذه المئات الكثيرة من السنين .

ومن مرحلة النطفة ، تنتقل إلى مرحلتى العلقه والمضغة ، فى رحلتنا مع إعجاز الخلق الإلهى .

الفصل السابع التخليق الطور الثالث مرحلتا العلقة والمضغة

تمهيد

مرة أخرى نعود للتذكير بمراحل نمو التخلق البشري ، كما أوردها القرآن الكريم في محكم آياته :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]

ونحن الآن مع مرحلة جديدة هي مرحلة «التخليق» . ويتكون هذا الطور من أربع مراحل هي : العلقة ، المضغة ، العظام ، اللحم . وتمتد هذه المرحلة من بداية الأسبوع الثالث حتى نهاية الأسبوع الثامن ؛ وأهم ما يميزها هو التكاثر السريع للخلايا ونشاطها الفائق في تكوين الأجهزة . وهنا نجد أن وصف التخليق يأتي وصفا دقيقا معبرا عن طبيعة التغيرات للعمليات الخارجية ، وعن المظهر الخارجي للجنين ، حيث ينتقل من مظهر غير متميز إلى مظهر إنساني متميز في الأسبوع السابع نتيجة لانتشار الهيكل العظمي ثم بناء العضلات في الأسبوع الثامن .

ونظرا لأن العمليات التخليقية للجنين تتم بسرعة كبيرة ، وتتلاحق فيها الأحداث خلال هذه الفترة ، فإننا نلاحظ أن القرآن الكريم قد استعمل حرف (الفاء) للربط والانتقال بين مراحل هذا التطور .

وستتناول في هذا الفصل مرحلتين منها ، هما «العلقة» و «المضغة» .

مرحلة العلقه

«العلقه» - فى معناها اللغوى - وجمعها «علق»، لفظه مشتقة من «علق»، وهو الالتصاق والتعلق بشىء ما. و «العلق» - كما أشار المفسرون - هو الدم عامة، والشديد الحمرة أو الغليظ الجامد. وتطلق «العلقه» على «الدم الرطب». والعلقه دودة فى الماء تمتص الدم، تعيش فى البرك، وتتغذى على دماء الحيوانات التى تلتصق بها، والجمع علق.

وسبحان من هذا كلامه. فقد عقد القرآن الكريم تشابها بين دودة العلقه والجنين، فى مرحلة العلقه، من حيث إنهما:

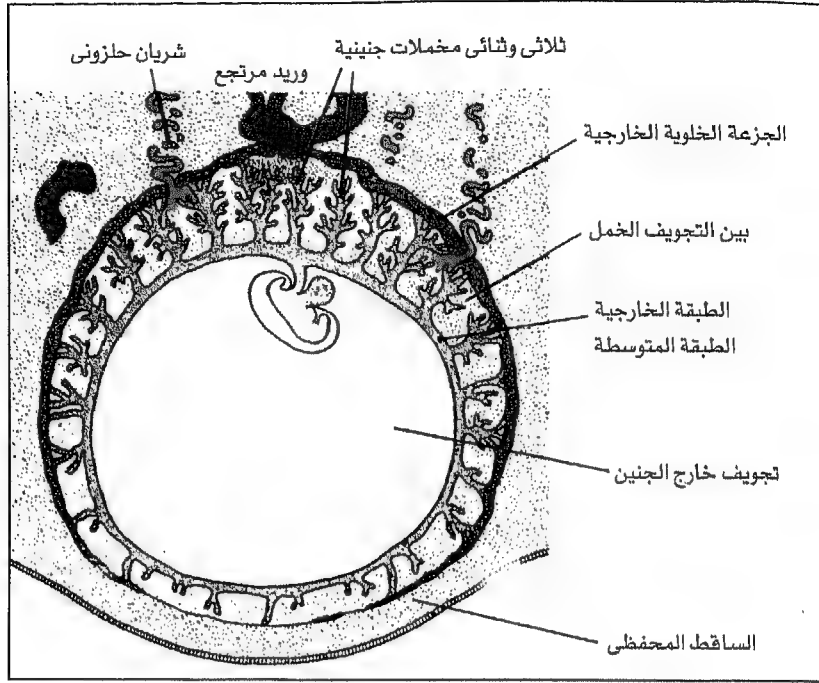
* كلاهما متطفل، بمعنى الاعتماد فى غذائه الجاهز على المصدر الذى يقتات منه.

* وإن غذاء كل منهما هو الدم.

* وإنهما يتعلقان، تلك على جسد المخلوق، وهذا على بطانة الرحم.

ومن هنا نجد أن لفظه «علقه» قد جاءت مطلقة فى القرآن الكريم لتشتمل على كل هذه المعانى. كذلك نجد أن كل هذه المعانى التى وردت فى القرآن الكريم قد تجلت فيما توصل إليه العلم الحديث، على نحو ما سيأتى ذكره.

تلتصق «النطفه التامة التكوين»، التى تسمى فى هذه المرحلة «المتكيسة الجرثومية» (BLASTOCYST) بجدار الرحم فى اليوم السادس فى بداية مرحلة «الحرث» (الانغراس) (IMPLANTATION)، حتى تنزرع تماما. (شكل ٢٧).



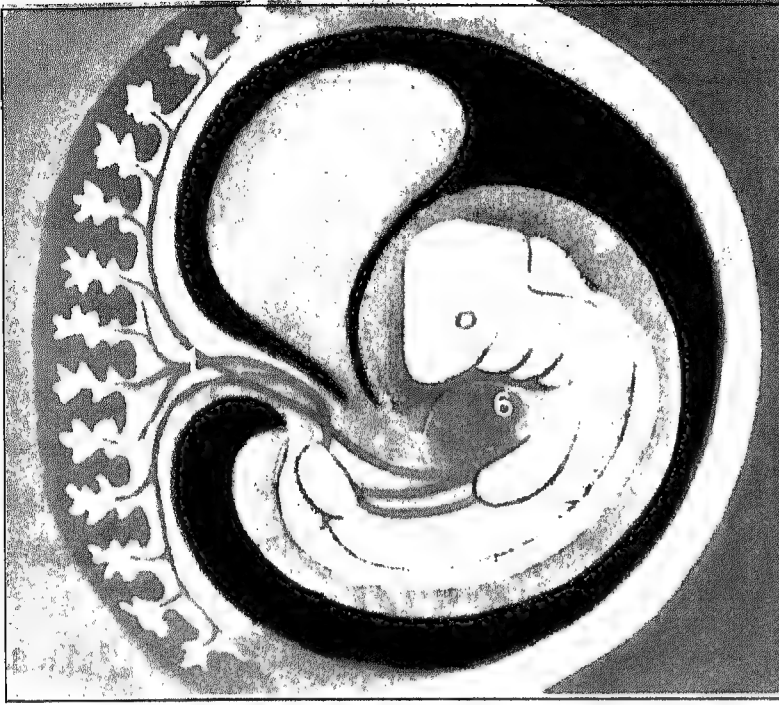
(شكل ٢٧) تنزوع النطفة التامة التكوين (Blastocyst) بجدار الرحم فى اليوم السادس (مرحلة الحرث)

وتستغرق هذه العملية أكثر من أسبوع حتى تلتصق النطفة بالمشيمة البدائية بواسطة ساق موصلة تصبح فيما بعد هى الحبل الصرى. (شكل ٢٨ و ٢٨ أ).

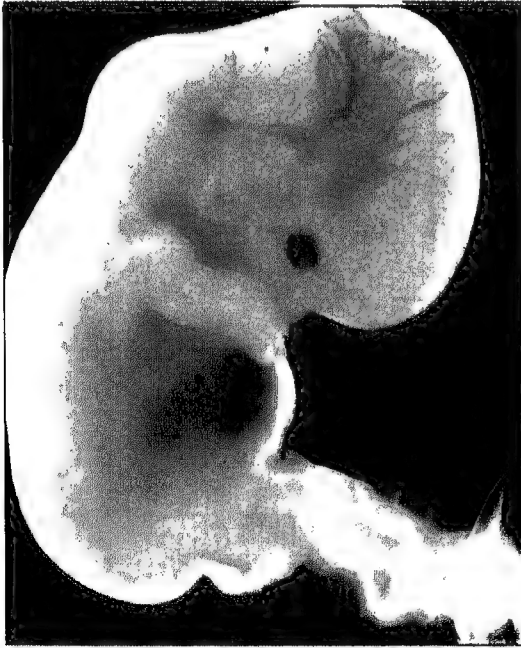
وفى أثناء عملية الحرث تفقد «النطفة» شكلها لتهيأ لأخذ شكل جديد هو «العلة» الذى يبدأ بتعلق الجنين بالمشيمة، وهو ما أسماه القرآن الكريم «العلة»؛ وهو ما يتفق مع معنى «التعلق بالشئ».

أما إذا أخذنا المعنى الحرفى للفظ «العلة»، وهو «دودة عالقة»، فإننا نجد أن الجنين يفقد شكله المستدير، ويستطيل حتى يأخذ شكل الدودة. (شكل ٢٩).

ثم يبدأ فى التغذى من دماء الأم، مثلما تفعل الدودة العالقة إذ تتغذى من دماء الكائنات الأخرى، ويحاط الجنين تماماً بمخاطى، مثلما تحاط الدودة بالماء.



١. الحبل الصري ٢. جدار الرحم ٣. الحويصلة ٤. الامينوس ٥. الرأس ٦. القلب



(شكل ٢٨-١٢٨) بعد مرور أسبوع تلتصق النطفة بالمشيمة البدائية بواسطة ساق تصبح الحبل الصري (العلفة)

وهكذا نجد أن اللفظ القرآنى «علقة» يبين هذا المعنى بوضوح طبقا لمظهر الجنين وملامحه فى هذه المرحلة .

وطبقا لمعنى (دم جامد أو غليظ) للفظ «علقة» ، نجد أن المظهر الخارجى للجنين وأكياسه يتشابه مع الدم المتخثر الجامد الغليظ ، لأن القلب الأولى وكيس المشيمة ومجموعة الأوعية القلبية ، تظهر فى هذه المرحلة . (شكل ٣٠) .

وتكون الدماء محبوسة فى الأوعية الدموية ولو كان الدم سائلا ، ولا يبدأ الدم فى الدوران حتى نهاية الأسبوع الثالث ، وبهذا يأخذ الجنين مظهر الدم الجامد أو الغليظ مع كونه دما رطبا .

وجميع هذه الملامح تندرج تحت المعنيين اللذين سبق ذكرهما " للعلقة " وهما (دم جامد) أو (دم رطب) .

وعندما نتحدث عن الفترات الزمنية ، فإننا نجد أن الجنين خلال مرحلة الانغراس يتحول من مرحلة النطفة ببطء ، إذ يستغرق نحو أسبوع منذ بداية الحرث (اليوم السادس) إلى مرحلة العلقه ، حتى يبدأ فى التعلق فى اليوم الرابع عشر أو اليوم الخامس عشر . ويستغرق بدء نمو الحبل الصرى حوالى عشرة أيام (اليوم السادس عشر) حتى يتخذ الجنين مظهر «العلقة» . (شكل ٢٩) .

ونلاحظ هنا أن حرف العطف (ثم) الوارد فى آيات القرآن الكريم يوفر دلالة واضحة على الفترة التى تتحول فيها «النطفة» إلى علقه ، حيث يدل هذا الحرف على انقضاء فترة زمنية حتى يتحقق التحول إلى المرحلة الجديدة . لأن حرف (ثم) يفيد الترتيب والتراخى .

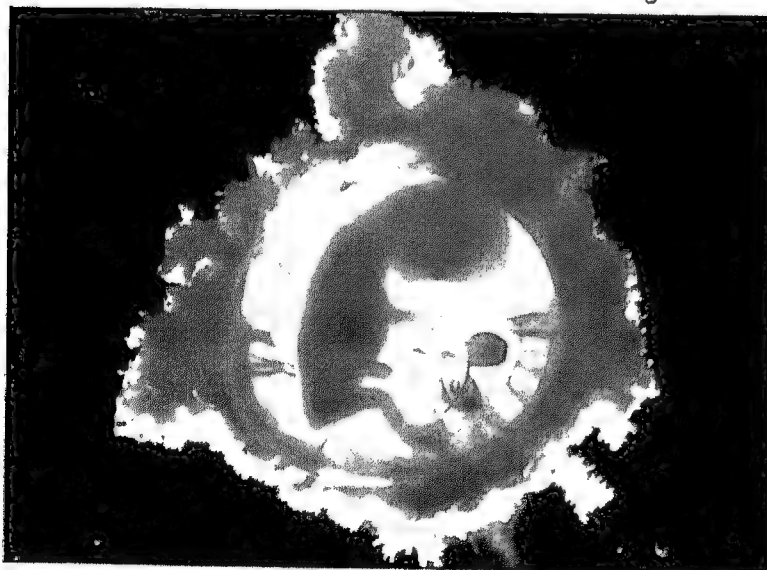
ويتسع اسم «علقة» فيشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة عالقة ، كما يشمل الأحداث الداخلية كتكون الدماء والأوعية المقفلة .

كما يدل لفظ «علقة» على تعلق الجنين بالمشيمة .

وهكذا نجد أن التعبير القرآنى «علقة» يعتبر وصفا متكاملا عن المرحلة الأولى من الطور الثانى لنمو الجنين ، ويغضى بكل دقة الملامح الأساسية الخارجية والداخلية .



(شكل ٢٩) العلقه - يفقد الجنين شكله المستدير ويستطيل ويأخذ شكل الدودة.



(شكل ٣٠) المظهر الخارجى للجنين وتكون القلب الأولى وكيس المشيمة ومجموعة الأوعية القلبية

وعن الغشاء المشيمي نقول إنه يتكون من خلايا خارجية، بواسطتها يتعلق الجنين وينغرس فى جدار الرحم وبواسطتها يتغذى. وهذه الخلايا تتمايز إلى نوعين هما الخلايا المخلاوية الآكلة، والخلايا الآكلة.



مرحلة المضغة

«المضغة» - فى اللغة - تأتى بمعان متعددة منها: شىء لاكته الأسنان، وفى قولنا مضغ الأمور أى صغارها، وحجم المضغة هو ما يمكن مضغه.

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ «مضغة» ليصف بها الجنين فى هذه المرحلة، حيث يبدو كقطعة لحم حجمها بمقدار ما يمضغ. وهذه اللفظة الواحدة تصف لنا بإيجاز معجز سحر شكل الجنين بالنسبة إلى: ١ - حجمه، ٢ - شكله، ٣ - قوامه.

فإذا ألقينا نظرة على الجنين؛ فإننا لجده يكون فى اليومين ٢٣ - ٢٤ فى نهاية مرحلة «العلة».

ثم يتحول إلى مرحلة «المضغة» فى اليومين ٢٥ و ٢٦، ويكون هذا التحول سريعاً جداً. ويبدأ خلال آخر يومين من مرحلة «العلة» فى اتخاذ بعض خصائص المضغة، فتأخذ الفلقات (SOMITES) فى الظهور لتصبح معلماً بارزاً لهذه المرحلة.

ويصف القرآن الكريم هذا التحول السريع للجنين من طور «العلة» إلى طور «المضغة» باستخدام حرف (الفاء) الذى يفيد التابع السريع للأحداث.

العمر بالأيام	عدد الفلقات	الطول (مم)	الخواص الرئيسية
٢٠-٢١	١-٣	١,٥-٣,٠	ظهور شق عصبي عميق والفلقات الأولى، ووضوح ثنية الرأس.
٢٢-٢٣	٤-١٢	٢,٠-٣,٥	الجنين مستقيم أو ذو انحناء بسيط، ويكون الأنبوب العصبي في طريقه إلى التكون أو تكون فعلا مقابل الفلقات ولكنه يكون مفتوحا بصورة كبيرة عند المسام العصبية المتقاربة والذيلية.
٢٤-٢٥	١٣-٢٠	٢,٥-٤,٥	يكون الجنين منحني الشكل بسبب ثنيته الرأس والذيل، وتبدأ المسامة العصبية المتقاربة في الانغلاق، ويظهر قرص الأذن، وتتكون الحويصلة البصرية.
٢٦-٢٧(*)	٢١-٢٩	٢,٥-٥,٠	ظهور براعم الطرفين العلويين، وبدء انغلاق المسامة العصبية الذيلية أو انغلاقها، وظهور ثلاثة أزواج من الأقواس الخيشومية، وإمكانية تمييز بروز القلب، وظهور فتحتى الأذنين.
٢٨-٣٠	٣٠-٣٥	٤,٠-٦,٠	يكون شكل الجنين على هذا النحو C، ويكون برعما الطرفين العلويين على شكل زعنفة، وتظهر أربعة أزواج من الأقواس الخيشومية، ويظهر برعما الطرفين السفليين، وتظهر حويصلتا الأذنين، ويمكن تمييز قرصى عدستى العينين، ويظهر ذيل رفيع.
٣١-٣٢(***)		٥,٠-٧,٠	يتخذ الطرفان العلويان شكل المجداف، وتظهر فتحتا العدستين والأنف؛ مع ظهور قرصى العينين.
٣٣-٣٦		٧,٠-٩,٠	تكون صفحتى اليدين، وظهور حويصلتى عدستى العينين، وبروز فتحتى الأنف، ويكون الطرفان السفليان على شكل مجداف، وظهور جيب عنقى.
٣٧-٤٠		٨,٠-١١,٠	تكون صفحتى القدمين، وظهور الصباغ فى الشبكية، ونمو برزتى الأذنين.
٤٠-٣٤		١١,٠-١٤,٠	ظهور أطراف الأصابع، ونمو برزتى الأذنين بشكل يحدد ملامح صيوان الأذن، وبدء استقامة الجذع، وبروز الحويصلات المخية.

الجدول: الصفات الرئيسية للجنين فى نموه من مرحلة العلقة إلى مرحلة المضغة. وتتكون الفلقات بسرعة فى الأيام الأخيرة من مرحلة العلقة ويكون التحول إلى مرحلة المضغة سريعا.

(*) تظهر التفاحات وأحاديد وقلقات تعطى علامة طبع الأسنان؛ لتمثل أول ظهور بارز لشكل المضغة.

(**) يصعب عند هذه المرحلة والمراحل التالية تحديد عدد الفلقات، ويكون هنا العدد غير مفيد كمقياس.

وقد أوضح علم الأجنة الحديث مدى دقة اختيار القرآن الكريم لتسمية «مضغة»، من حيث ارتباطها بالشكل الخارجى للجنين، وتركيباته الداخلية الأساسية. فقد وجد أنه بعد تخلق الجنين والمشيمة فى هذه المرحلة، فإن الجنين يتلقى الغذاء والطاقة، وبذلك تتزايد عملية النمو بسرعة، ويبدأ ظهور الكتل البدنية المسماة فلقات، والتي تتكون منها العظام والعضلات.

ونظرا لتعدد الفلقات التي تتكون، فإن الجنين يبدو وكأنه مادة ممضوغة عليها طبقات أسنان واضحة، فهو «مضغة». وهنا يتفق معى الزميل الدكتور محمد على البار فيقول: «وقد كان المفسرون القدامى يصفون المضغة بأنها مقدار ما يمضغ من اللحم، ولكنى بعد إعادة النظر والمناقشة أرى الآن أن وصف المضغة ينطبق تمام الانطباق على مرحلة الكتل البدنية. إذ يبدو الجنين فيها وكأن أسنانا انغrust فيه ولاكنه ثم قذفته».

وهذه مجموعة من النقاط التي تبين لنا مدى تطابق تعبير «مضغة» لوصف العمليات الجارية فى هذه المرحلة:

※ ظهور الفلقات التي تعطى مظهرها يشبه مظهر طبع الأسنان فى المادة الممضوغة، وتبدو أنها تتغير باستمرار مثلما تتغير آثار طبع الأسنان فى شكل مادة تمضغ حين لوكها، وذلك للتغير السريع فى شكل الجنين، ولكن آثار الطبع أو المضغ تستمر ملازمة. فالجنين يتغير شكله الكلى، ولكن التركيبات المتكونة من الفلقات تبقى. وكما أن المادة التي تلوكها الأسنان يحدث بها تغضن وانتفاخات وتثنيات، فإن ذلك يحدث للجنين تماما.

※ تتغير أوضاع الجنين نتيجة تحولات فى مركز ثقله مع تكون أنسجة جديدة، ويشبه ذلك تغير وضع المادة وشكلها حين تلوكها الأسنان.

※ وكما تستدير المادة الممضوغة قبل أن تبلع، فإن ظهر الجنين ينحني ويصبح مقوسا شبه مستدير مثل حرف (C) بالإنجليزية. (شكل ٢٨)

※ ويكون طول الجنين حوالى (١) سم فى نهاية هذه المرحلة، وهو ما يتطابق مع المعنى الآخر لكلمة «مضغة» وهو (الشئ الصغير من المادة). وينطبق هذا المعنى

على الحجم الصغير للجنين؛ لأن جميع أجهزة الإنسان تتخلق في مرحلة المضغة ولكن في صورة «برعم». كذلك فإن المعنى الآخر للمضغة، وهو (حجم ما يمكن مضغه)، ينطبق على حجم الجنين في نهاية هذه المرحلة (١ سم) وهذا تقريبا هو أصغر حجم لمادة يمكن أن تلوکها الأسنان.

أما المرحلة السابقة للعلاقة فقد كان الحجم صغيرا (٥/٣ ملم) طولا، وهو حجم لا يتيسر مضغه. وينتهى طور «المضغة» بنهاية الأسبوع السادس.

ولا تتمايز الفلقات في البداية، ولكنها سرعان ما تتمايز إلى خلايا تتطور إلى أعضاء مختلفة، وبعض هذه الأعضاء والأجهزة تتكون في مرحلة المضغة، والبعض الآخر في مراحل لاحقة، وهو ما تشير إليه - في رأى البعض - الآية القرآنية الكريمة ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]

ونتوقف هنا عند «النطفة غير المخلقة». معروف أن بطانة الرحم تنمو وتكتسب الأوعية الدموية اللازمة لتكون ملائمة للتغذية السليمة والنمو المطلوب للعلاقة حتى تصبح «مضغة مخلقة». والمضغة غير المخلقة هي التي لم يتم نموها في حالة طبيعية نتيجة لخلل في تكوين النطفة الأمشاج أو لقصور في التغيرات المطلوبة ونمو الغشاء المبطن للرحم؛ فيعجز عن تقديم التغذية الكاملة للعلاقة. وتكون النتيجة أن تفقد العلاقة النمو السليم، ويطردها الرحم، فإذا حدث ذلك في بداية الانغراس مجتهدا الأرحام دما، وإذا حدث في مرحلة متأخرة نوعا يقع الإجهاض. (شكل ٣١)



(شكل ٣١) نتيجة الإجهاض

وهذا جدول يوضح ظهور الكتل البدنية مقارنة بعمر الجنين، بالأيام :

العمر بالأيام	عدد الكتل البدنية
٢٠ يوما	١ - ٤
٢١ يوما	٤ - ٧
٢٢ يوما	٧ - ١٠
٢٤ يوما	١٣ - ١٧
٢٥ يوما	١٧ - ٢٠
٢٦ يوما	٢٠ - ٢٣
٢٧ يوما	٢٣ - ٢٦
٢٨ يوما	٢٦ - ٢٩
٣٠ يوما	٣٤ - ٣٥

وبعد مرحلة «المضغة» - كما يقرر القرآن الكريم - تبدأ مرحلة تكون العظام، ثم تكسية العظام بالعضلات . وهو ما يقرره علم الأجنة الحديث .

الخلاصة:

فى هذا الطور من أطوار التخلق البشرى ، انتهينا من مرحلتين هما «العلاقة» و«المضغة» .

تبدأ مرحلة «العلاقة» بتعلق الجنين بالمشيمة ، ويأخذ فى تعلقه واستطالته شكل العلاقة .

وتنتهى هذه المرحلة بالنمو السريع لخلايا الجنين فى عدة اتجاهات ، وتبدأ «العلاقة» فى أخذ شكل «المضغة» ، الذى ينتهى بدوره بانتشار الهيكل العظمى فى أوائل الأسبوع السابع .

أى إعجاز هذا الذى نجد أمامنا ؟ : مراحل محددة بداياتها ونهاياتها ، وأسماء تعبر فى الوقت ذاته عن المظهر الخارجى وعن أهم الأحداث الداخلية ، وحروف عطف مناسبة تشير بكل الدقة إلى الفوارق الزمنية فى التحول . وسبحان من هذا كلامه . .

ثم ننتقل من العلاقة والمضغة ، إلى المرحلة التالية من الخلق .

الفصل الثامن

الطور الرابع

مرحلتا العظام واللحم

تقديم

فى بيان رائع ودقيق يستعرض القرآن الكريم مراحل وأطوار الخلق البشرى، خلال عملية الحمل كلها بأسلوب سهل واضح، فيقول جل جلاله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]

وقد تحدثنا - فى طور التخليق البشرى - عن مرحلتى العلقه والمضغه . ونواصل الآن الحديث عن بقية مراحل هذا الطور وهى مرحلتا تكون العظام، وتكون العضلات فى الجنين .

تكون العظام

أثبت العلم الحديث أن العظام لا تتطور معا في آن واحد في الجسم، وإنما هناك برنامج أو جدول زمني لتكونها. فأول عظام يكتمل تكونها - على سبيل المثال - هي عظيماات الأذن الداخلية (خلال المرحلة الجنينية)، بينما لا تكتمل مراكز النمو للعظام الطويلة للأرجل إلا بعد سن العشرين من الولادة أو أكثر.

ومع ذلك فمن الممكن تحديد مرحلة مميزة للعظام، وذلك عندما يدخل الجنين مرحلة انتشار الهيكل العظمى حين يتكون الهيكل الغضروفي (العظم الأولي) في الأسبوع السابع.

وبهذا ينتقل شكل الجنين من مرحلة «المضغة» التي لا تحمل شكلا آدميا إلى مرحلة «العظام» التي يغلب عليها شكل الهيكل العظمى المميز للإنسان. (شكل ٣٢ و ٣٣).

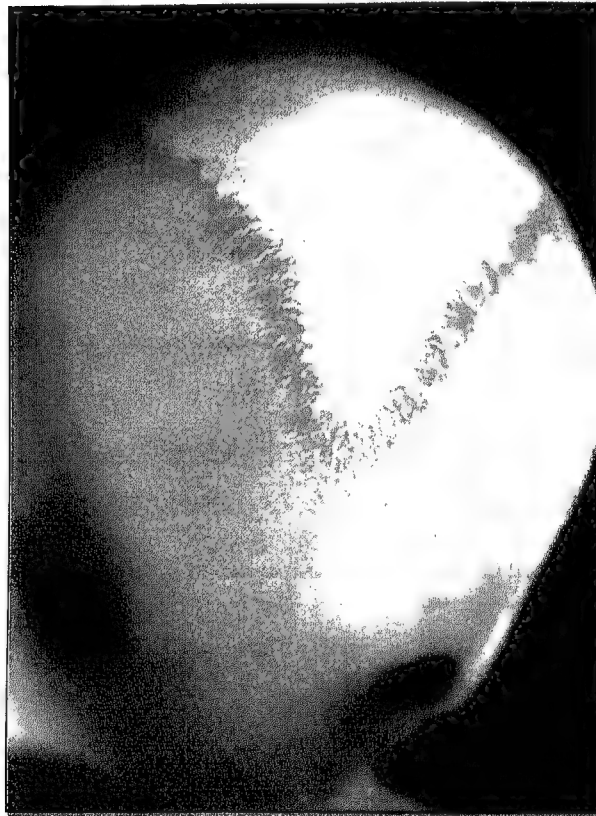
وتتضمن عملية تكون العظام، مجموعة طلائع خلايا الأنسجة الوسطى (النسيج الجنيني الضام) لكل من العظام الغشائية والعظام الغضروفية. فحين تتكون العظام بين الأغشية (كعظام الفك السفلى والفك العلوى) تتكاثف خلايا النسيج الأوسط مكونة أكداسا من الخلايا، وتتميز على شكل خلية تعظم أو بدائية عظمية، تفرز بدورها حول نفسها منبتا عضويا للعظام، يكون غنيا بالغراء.

وعندما يحيط منبت العظام بالخلايا، تسمى خلايا عظمية، ويتمعدن (بترسب الكالسيوم) منبت العظام العضوى مع تعظمه.

وتتكون العظام الغضروفية على نحو مماثل، باستثناء الخلايا المتكثفة في الطبقة الوسطى فإنها تتميز أولا، على شكل جذعة غضروفية تكون المنبت العضوى لعظام الغضروف. فيتكون الهيكل العظمى الأولي من الغضروف، ثم يحل العظم محل



(شكل ٣٢) مرحلة العظام - يأخذ الجنين الشكل العظمي المميز للإنسان



(شكل ٣٣) عظام الرأس (العظام الغشائية)

الغضروف، وتحيط طبقة من الأنسجة الضامة (تسمى غشاء الغضروف) بنموذج الغضروف (أو «السمحاق» الذى يغلف العظام)، ويكون بمثابة خزان للخلايا الأصول (الجدعات الغضروفية أو الجدعات العظمية) عند نمو هذه الأنسجة.

وبالرغم من أن طلائع خلايا العضلات والعظام قد تتجاوز (فى الفلقات مثلا) فإن تاريخها يبدأ بالاختلاف عندما تبدأ الخلايا فى الانتقال إلى أماكن مختلفة فى الجنين، إذ إنها لا تنتشر فى الجسم لتكسو العظام إلا بعد تكون الهيكل العظمى الغضروفى.

وتنبثق عظام الجسم الطويلة عن النسيج الأوسط الجنينى.

وتتكاثف خلايا هذا النسيج فى الأطراف، فتتجمع فى المنطقة التى تتكون فيها العظام.

ومن تلك الكتلة الكثيفة من الخلايا تبدأ عملية تكون الأنسجة؛ التى يتميز فيها النسيج الوسط على شكل جدعات غضروفية.

وتفرز هذه الجدعات بدورها حول نفسها المنبت العضوى للغضاريف.

وينجم عن عملية التغضرف ظهور نموذج غضروفى يعطى الجنين هيكله العظمى وشكله الإنسانى.

وتنفصل الخلايا عن النسيج الضام، وتشكل قلادة عظمية حول ساق النموذج الغضروفى.

وينفصل النسيج الغضروفى اللاوعائى نتيجة لذلك عن المواد المغذية المنتشرة، ويصبح نخريا، وتموت الخلايا الغضروفية.

ويعقب ذلك انتشار خلايا الأنسجة الضامة، والعناصر الوعائية من الأنسجة الضامة المجاورة.

وتجتمع بعض هذه الخلايا المنتشرة على شكل جذعة عظمية وتحيط نفسها بمنبت غضروفى عظمى عضوى حديث الإفراز، وبذلك تتكون الخلايا العظمية للعظم الحديث النمو (الذى كان قبل ذلك نموذجا غضروفيا).

ومع أنه لا يبدأ تكون العظام على نحو موحد فى الجسم كله، وتظهر الأنسجة العظمية بالتعاقب، فإن الأسبوع السابع يشهد مرحلة انتشار الهيكل العظمى فى جسم الجنين ويبدأ نمو عظام الأطراف (شكل ٣٤) فى براعم العظام الجنينية من خلايا النسيج الأوسط، وتظهر مراكز التعظم الابتدائى فى الفخذ خلال الأسبوع السابع، وفى القص والفك خلال الأسبوعين الثامن والتاسع.

وفى العقود الأخيرة تم تدوين عملية تكون العظام فى الجنين البشرى. كما تمت - فى علم الأنسجة - دراسة دور كل من النسيج الأوسط، والجذعات العظمية، وكاسرات العظام، والخلايا العظمية.

ومما سهل معرفة مراحل ترسب الغضاريف والتعمدن فى الجنين، تطبيق إجراءات الاصطباغ الخاصة بالغضاريف والعظام.

وبالرغم من وجود طلائع خلايا (جذوع العضلات) بالقرب من العظام النامية، فإن التميز على شكل روابط عضلية هيكلية تكسو العظام يحدث بعد بدء عمليات التعظم فى نهايات العظام والساق.

مصطلح العظام

قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾.

يبين لنا هذا النص القرآنى أن مرحلة «العظام» تأتى بعد مرحلة «المضغة»، وأن المضغة قد تكونت لديها عناصر هيكلية. وهكذا فإن القرآن الكريم، كعادته فى إيراد الكلمات المحددة، يطلق اسم «العظام» على هذه المرحلة التى تلى المضغة، حيث يأخذ الجنين شكل العظام بانتشار الهيكل العظمى فى هذه المرحلة.

ونلاحظ أن استعمال حرف (ف) فى الآية الكريمة يشير إلى أن مرحلة العظام تنمو بعد مرحلة المضغة بفترة قصيرة. لأن حرف «الفاء» يفيد الترتيب والتعقيب، بخلاف حرف «ثم» الذى يفيد الترتيب والتراخى.

وحول هذه الأمور روى حذيفة بن أسيد الغفارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها».

يتخذ الجنين - فى بدء مرحلة العظام - المظهر الإنسانى الذى يميزه عن غيره من الأجنة، وهو ما يصفه الحديث الشريف بكلمة (صورها).

ويصعب - قبل اليوم الثانى والأربعين - تمييز الجنين البشرى عن أجنة كثير من الحيوانات، مع أنه يكون مميزا بوضوح فى مظهره، وتبدأ بعض الخلايا غير المتخصصة للجنين فى التخصص، وتتحول إلى أجزاء وظيفية متنوعة. وينجم عن هذه العملية تكون الأعضاء وتجهيئتها اللازمة للحياة. ويصبح سطح الجسم أكثر استواء فى مرحلة العظام، ويتخذ فى هذه المرحلة مظهرا أكثر استقامة.



(شكل ٣٤) الأسبوع السابع - نمو عظام الأطراف

تكون العضلات

تنشأ معظم خلايا عضلات الهيكل العظمى من الفلقات . ولذلك ينمو الجهاز العضلى على شكل فقري (مجزأ).

ويشير توزيع الأعصاب الجلدية فى جسم الإنسان البالغ إلى هذا التجزؤ العضلى . كما يشير التجزؤ العضلى بدوره إلى أصل التجزؤ الجنينى .

وعند نهاية الأسبوع السادس من النمو ، تنتقل الخلايا الأولية لهيكل الجسم ، وخلايا الجلد الأولية ، بعيدا عن منطقة الفلقات الأصلية ، ثم تنمو هذه الخلايا وتتصل بالخلايا المجاورة ؛ ويكون نموها فى اتجاه البطن لتشكل القسيمات العضلية .

وتتجزأ هذه القسيمات العضلية بدورها إلى أجزاء خارجية (Epimeric) وأجزاء داخلية (Hypomeric) ، يزود كل منهما بفرع من العصب الشوكى . وبصفة عامة ؛ فإن الجهاز العضلى للظهر ينشأ من طبقة الأجزاء الخارجية (Epimeric) ، بينما تنشأ عضلات جدران البطن والضلوع من الأجزاء الداخلية (Hypomeric) .

وخلال العقود القليلة الماضية حظيت عملية تكون العضلات - على مستوى الخلايا - بدراسة جيدة ، اتضح منها أن الخلايا الابتدائية للخلايا العضلية تندمج معا ، وتكون مركبات متعددة النويات ، تتخذ شكل أنابيب عضلية (Myotubes) .

ويستمر النمو باندماج كل من الخلايا العضلية والأنابيب العضلية ، ويحدث بعد الاندماج مباشرة أو خلاله تأليف وتنظيم - بشكل تدريجى - للخيوط العضلية (Myofilaments) الأكتين ، والميوسين ، وغيرهما من البروتينات العضلية) فى هذه الخلايا أو (الألياف) العضلية .

فى البداية يظهر ترتيب الألياف العضلية غير منتظم ، ولكنها تدريجيا تنتظم فى حزم من الألياف العضلية التى يتصف بها التنظيم النسيجي لعضلات الهيكل العظمى ، ثم تتصل هذه الخلايا العضلية بغشاء العظام التى تكونت فى هذا الموضع ، مكونة حول هذه

العظام النسيج العضلى الذى يكسو تلك العظام . ومع نهاية الأسبوع السابع ، وخلال الأسبوع الثامن يمكن ملاحظة تميز واضح لعضلات الجذع والأطراف والرأس ، وقد بدت بصور جلية فى هذه الفترة ، وبهذا يصبح الجنين قادرا على إحداث بعض الحركات .

أى إعجاز هذا يارب ؟ فقبل أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، نزل كتابك الحق وفيه ذكر واضح لكيفية تكون العظام فى جنين الإنسان ، وما يعقبه من كساء العظام باللحم والعضلات . فإنه لقولك الحق ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤]

ويتم اتصال الألياف العضلية بالعظام بواسطة أوتار عن طريق تشابك النهايات القصوى للخلايا العضلية بحزم النسيج الضام للوتر المتكون . وهذا النسيج الضام الكثيف يتصل بقوة بالقشرة الخارجية المحيطة بالخلايا العضلية ، كما يتصل كذلك بغشاء العظام الذى سبق تكوينه .

ومع نمو العظام ، فقد تنظم حزم النسيج الضام داخل العظام على شكل ألياف . ويلاحظ أن تحلل الخلايا العضلية ، وحلول عناصر النسيج الضام مكانها يمكن أن يقدم لنا تصورا عن كيفية تكون الأوتار والصفاقات .

إن علم الحياة النمائية يهتم بدراسة تسلسل عمليات النمو التى تحدث فى تكوين العظام والعضلات . فعندما تتكون عظام الهيكل فإن الطبقة المتوسطة التى تتشكل منها العضلات تبدأ فى التجمع على هيئة كتل ظهرية أو بطنية ، وتقوم بكساء أجزاء الهيكل العظمى المتكون .

تعبير الكساء باللحم

لا تأخذ العظام ولا اللحم (العضلات) شكلها الواضح المعروف فى الأربعين يوما الأولى . وتظهر فى هيئتها المعتادة فى الأسبوع السابع ، ويتشكل الجنين فتمتيز لدينا مرحلة محددة مختلفة فى مظهرها وتركيبها عن المرحلة السابقة «المضغة» . وتلى مرحلة العظام مرحلة أخرى تتميز عنها بكساء الهيكل العظمى باللحم من

جميع جوانبه ، فتتعدل الصورة الأدمية للجنين ، وتناسق الأعضاء بصورة أدق ، وبذلك يبدأ الجنين بالحركة فى نهاية الأسبوع الثامن . (شكل ٣٥) .

وهذه مرحلة متميزة عن مرحلة العظام فى التركيب والتناسق والصورة ، وقدرة الجنين على الحركة . وتبدأ هذه المرحلة من أواخر الأسبوع السابع إلى تمام الأسبوع الثامن ، وتأتى عقب مرحلة العظام مباشرة .

وهنا نجد أن النص القرآنى يأتى دالاً على التتابع السريع بين المرحلتين ، وذلك باستعمال حرف العطف (ف) الذى يفيد تعاقب الأحداث التى يربط بينها .

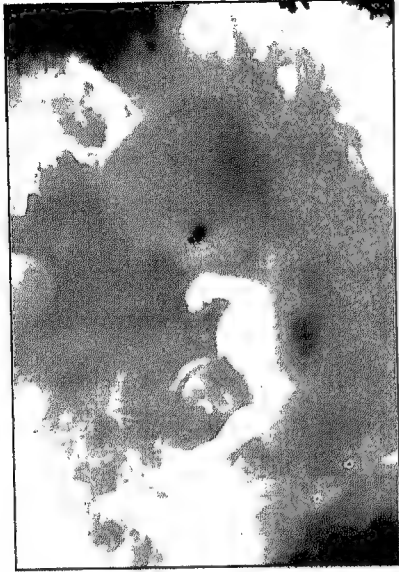
كذلك تشير الآية الكريمة الى أن مرحلة الكساء باللحم تمثل نهاية لمرحلة من مراحل نمو الجنين ، لتبدأ بعدها بفترة من الزمن ، مرحلة أخرى هى النشأة ، وهو ما يدل عليه استعمال حرف العطف (ثم) الذى يفيد الترتيب والتراخى فى الزمن بين الأفعال التى يربط بينها .

سبحانك يا خالق يا عظيم ، ذكرت ذلك كله فى محكم كتابك الكريم بقولك : ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤]

الخلاصة

تظهر أمامنا بكل وضوح السمات الرئيسية للأسبوعين السابع والثامن ، من خلال استخدام تعبيرى عظام (الهيكل العظمى) ولحم (العضلات) . ونلاحظ أن هذين التعبيرين يصفان هاتين المرحلتين بلغة واضحة بعيدة عن أى غموض . وهكذا يأتى القرآن - وهو كلام الله - ليسبق بأكثر من ألف عام العلماء فى كل بقاع الأرض ، فيطرح أول وصف تفصيلى لمراحل التخلق وأحداث النمو ، بعبارات جامعة شاملة ومن مرحلة العظام واللحم تنتقل إلى مرحلة النشأة فى رحلتنا مع الخلق الإلهى المعجز ، وبيانه المحكم له فى آياته القرآنية .

ومن مرحلة العظام واللحم ، تنتقل إلى مرحلة النشأة ، فى رحلتنا مع الخلق الإلهى المعجز ، وبيانه المحكم له فى آياته القرآنية .



(شكل ٣٥) تناسق الاعضاء (الاسبوع الثامن) بصورة أدق يبدأ الجنين في الحركة

الفصل التاسع الطور الخامس النشأة

تمهيد

فى نهاية الأسبوع الثامن تظهر على الجنين خواص بشرية، فتكسى العظام بالعضلات التى يغطيها الجلد، وتتميز بعد ذلك بشكل واضح كل أعضاء الجسم. وفى الأسبوع التاسع يبدأ طور «النشأة»، ويكون معدل النمو بطيئاً حتى بداية الأسبوع الثانى عشر، وحينئذ تبدأ مرحلة جديدة من النمو السريع والتغير الكبير. وهذا أمر يمكن متابعته من خلال ملاحظة وزن الجنين. والطور الذى نتحدث عنه هو الذى ذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]

تعريف النشأة

كلمة «نشأة» مستقاة من فعل «نشأ»، ومن معانيها:

✳ بدأ ✳ نما ✳ ارتفع

كما ورد عن علماء التفسير في هذه الآية المعنيان التاليان:

✳ تطور الجنين إلى مخلوق ناطق سميع بصير.

✳ نفخ الروح في الجنين.

ويلاحظ في الآية ورود حرف العطف «ثم»، ليفيد أن مرحلة «النشأة» تأتي بعد مرحلة «الكساء باللحم» على التراخي في الزمن بصورة تدريجية.

هذا المعنى الذى يدل عليه حرف «ثم» لجده واضحا في تاريخ تطور النشأة، حيث تبدأ «المرحلة الجنينية» في الأسبوع التاسع، ويظهر نمو بعض الأعضاء في الأسبوع الحادى عشر، وتستمر مرحلة النشأة حتى نهاية الحمل، أى الأسبوع الثامن والثلاثين. (شكل ٣٦).

خصائص مرحلة النشأة:

١ - تطور الأعضاء والأجهزة:

تتميز مرحلة الحمل ببداية تكون الأعضاء وظهورها في حين تتسم مرحلة الجنين اللاحقة لها بتهيئة الأعضاء والأجهزة المختلفة للقيام بوظائفها.

وهذا هو المعنى الذى أشار إليه المفسرون (ويصبح الإنسان كائنا ناطقا سميعا بصيرا).

والحد الفاصل بين مرحلتى الحمل والجنين هو نهاية مرحلة كساء العظام باللحم.

٢ - نفخ الروح:

لدينا فى هذه النقطة نصوص قرآنية وأحاديث نبوية تشير إلى أن الروح قد تنفخ فى مرحلة الجنين (١). ومعنى ذلك أن الحياة التى تكون قبل ذلك حياة من نوع آخر أطلق عليها علماء المسلمين «الحياة النباتية».

ففى سورة «المؤمنون» يقول الحق تعالى فى قرآنه الكريم ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

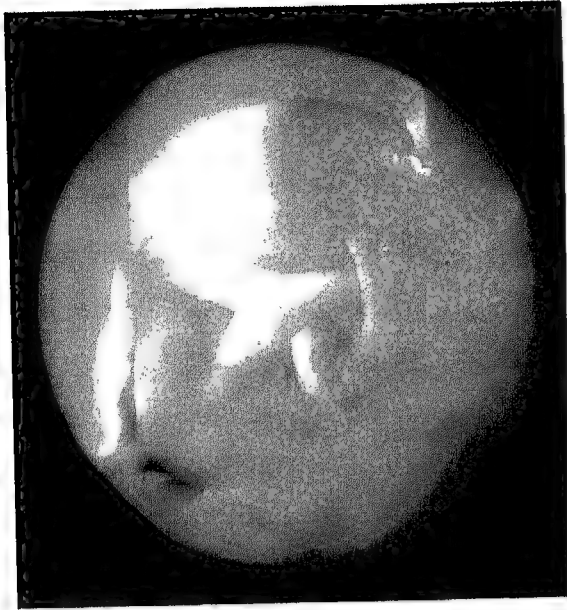
وفى صحيح مسلم يروى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق الصدوق، قال: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فىنفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد».

ويكاد جمهور العلماء والفقهاء يجمعون على أن نفخ الروح يتم فى نهاية الأربعين الثالثة (حديث ابن مسعود، وحديث حذيفة) أى ١٢٠ يوما. ويذهب البعض إلى أن هذه الفترة بالذات أو ما يقرب منها (أربعة أشهر وعشر) هى فترة (العدة) التى لا بد أن تنقضى قبل أن تتزوج المرأة المطلقة أو الأرملة، حيث يعنى مرور هذه الفترة أنه ليس فى بطنها جنين قد دخلت فيه الروح.

وبعد ذلك لابد لنا من وقفة عند الروح وهى فى البدن، لنجد أن النصوص الشرعية تدل على أن الروح تغادر البدن وقت النوم وتعود إليه باليقظة.

ففى سورة الزمر يقول الحق تعالى فى قرآنه الكريم ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

(١) يعتبر وقت نفخ الروح علامة هامة للغاية، حيث يحرم قتل هذا الجنين بعد نفخ الروح قولاً واحداً. وقد جعل ابن حزم جريمة قتل الجنين بعد نفخ الروح (إذا أمكن التيقن من حياة الجنين) مساوية لقتله بعد الولادة وفيها القصاص لا الدية.



(شكل ٣٦) اكتمال تكوين الجنين (الأسبوع ٣٨)



(شكل ٣٧) اتخاذ ملامح الوجه . المقاييس البشرية المعروفة

وفي سورة الأنعام يقول جل جلاله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند استيقاظه (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور).

٣ - التغيرات في مقاييس الجسم واكتساب الصورة الشخصية:

توجد أمامنا الآيتان (٧ - ٨) من سورة الإنفطار، واللذان تحددان لنا كيفية حدوث هذه العمليات، إذ يقول الحق جل جلاله ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) في أي صورة ما شاء ركبك ﴿[الإنفطار: ٧، ٨].

وتعالوا نحلل مضمون هاتين الآيتين الكريميتين بشيء من التفصيل:

فكلمة «سواك» تعنى جعل الشيء مستويا ومستقيما ومهيأ لأداء وظائفه.

وقد انتهينا الى أن التسوية تبدأ خلال مرحلة «العظام».

وتعنى كلمة «فعدلك» تغير الشكل والهيئة لتكوين شيء محدد.

أما الحرف (ف) قبل كلمة «عدلك» فيشير إلى التسلسل المباشر. وبذلك يكون المعنى (وبعد ذلك عدل هيئتك) لأن «عدلك» بينتها الآية التي تليها وهي «فى أى صورة ما شاء ركبك».

وخلال طور النشأة تتغير مقاييس الجسم، وتتخذ ملامح الوجه المقاييس البشرية المألوفة. (شكل ٣٧).

فنتقل الأذن - مثلا - من الرقبة الى الرأس، وتتحرك العينان إلى مقدمة الوجه، ويصبح الطرفان السفليان أكثر طولاً بالمقارنة بالجسم.

وهذا ما يشار إليه بكلمة «تعديل» وتعنى: التقويم.

وتعنى كلمة «صورة» - فى الآية الثانية - «هيئة أو شكل» فالآية - إذن - تعنى أنه عقب بدء عملية التسوية مباشرة يطرأ تغيير على الجنين، فيتخذ المقاييس الطبيعية

(التعديل)، ويحدث اكتساب الصورة الشخصية (التصوير)، وتستمر عمليات التعديل والتصوير حتى الولادة، بل وبعدها.

٤ - تحديد الجنس:

حسبما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى، فإن هناك ثلاث خطوات تحدد نمو الخصائص النوعية (التذكير والتأنيث):

الخطوة الأولى:

وتحدث فى مرحلة النطفة (التقدير فى النطفة)

الخطوة الثانية:

وهى تمايز غدتى التناسل على شكل خصيتين أو مبيضين، فتحدث خلال مرحلة الكساء باللحم، فى الأسبوع التاسع.

الخطوة الثالثة:

وهى تميز الأعضاء التناسلية الخارجية، وتحدث خلال طور النشأة.

وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف الذى رواه مسلم فى صحيحه (عن حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، وعظامها، ثم قال يارب أذكر أم أنثى، فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك).

ويتحقق هذا بخلق الأعضاء التناسلية الخارجية التى يتم بها التمييز النهائى للذكورة والأنوثة، وتكتمل بها مراحل وأطوار تحديد النوع. ويتم ذلك فى الأسبوع الثانى عشر.

وجدير بالذكر أن نسجل هنا هذه الملاحظات:

أن الأعضاء التناسلية الخارجية تكون متماثلة إلى الأسبوع التاسع.

أنه يمكن التمييز بسهولة بين الأعضاء التناسلية الخارجية للجنسين فى الأسبوع الثانى عشر، ويصعب قبل ذلك.

هذا مع العلم بأن التطور النوعى لمستقبل الجنين، والمتمثل فى الغدد والأعضاء التناسلية الخارجية، قد تحدد سلفا وفقا لجنس الكروموسوم. إلا أنه يحدث أحيانا أن تتطور الأعضاء التناسلية الخارجية فى وضع مغاير للوضع الجنى السابق بالنسبة لتحديد نوع الجنس. مراحل طور النشأة:

يتكون طور النشأة من عدة مراحل وتطورات، هى:

١ - النشأة خلق آخر:

يبدأ هذا الطور فى الأسبوع التاسع، ويستمر حتى الأسبوع الثانى والعشرين. وتتضح فى الجنين الصفات التالية:

أ - النمو السريع:

فالجنين ينمو ببطء بعد طور اللحم (الأسبوع التاسع) مباشرة، وحتى الأسبوع الثانى عشر، ثم يتسارع النمو جدا.

ب - تغيير طبيعة الجنين وتطور أعضائه:

فالهيكل العظمى يتطور من عظام غضروفية لينة إلى عظام صلبة متكلسة، وفى الأسبوع الثانى عشر من الحمل تظهر مراكز التعظم فى غالب العظام، وتتمايز الأطراف. ويصبح ممكنا رؤية الأظافر على الأصابع، وتتوازن أحجام الرأس والجسم والأطراف، لاسيما بين الأسبوعين التاسع والثانى عشر. ويظهر الشعر الزغبي على الجلد، الذى يتمايز فى هذه المرحلة إلى بشرة وأدمة. ويزداد حجم الجنين بسرعة بصورة عامة. ويتم التمييز بين الأعضاء التناسلية الخارجية بصورة واضحة فى الأسبوع الثانى عشر. وتتطور العضلات الإرادية وغير الإرادية، ويظهر فى هذه المرحلة بعض الحركات العادية الذاتية، وكذلك بعض التقلصات العضلية الانعكاسية إذا ما تعرض لمنبه خارجى.

وبصورة عامة فإن التطور الوظيفى للجهاز العصبى يتوازى مع تطور الدماغ والحبل الشوكى، وتظهر الحركات البدائية والغريزية كالمص والقبض بعد ذلك بفترة طويلة.

ومع نهاية هذا الطور تكون أعضاء الجنين قد اكتملت وأصبحت مؤهلة للقيام بوظائفها؛ وهو ما جاء وصفه ببالغ الإحكام فى القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ .

أقل مدة للحمل:

مدة الحمل العادية هى تسعة أشهر . لكن الجنين - بعد مرحلة النشأة - يصبح خلقا آخر قادرا على الحياة أو البقاء خارج الرحم ، عند تمام الشهر السادس من تخلقه .

ويتفق هذا مع معانى عدة آيات من القرآن الكريم هى : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، ﴿ وَفَصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : ١٤] ، ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] . وبالحساب الدقيق - وفقا لهذه الآيات - وبما توصل إليه العلم ، نجد أن أدنى مدة للحمل هى ستة أشهر . وهذا هو ما أفتى به أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وأقره على ذلك الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - وبه قال المفسرون . وقد أثبت العلم ما قرره المفسرون من حيث استحالة قدرة الجنين على التنفس قبل نهاية الأسبوع الرابع والعشرين نظرا لعدم اكتمال قدرته على ذلك .

٢ - الحضانة الرحمية:

عرفنا من الآيات السابقة أن أدنى مدة للحمل هى ستة أشهر ، وأن هذه الأشهر كافية لبقاء الإنسان على قيد الحياة بعد خروجه من الرحم . وحيث إن الولادة تتم عادة بعد تسعة أشهر ، فيمكن اعتبار الأشهر الثلاثة بعد نهاية الشهر السادس وبين الولادة بمثابة فترة حضانة رحمية .

ولا بد لنا هنا من وقفة نتذوق فيها عظمة الخالق عز وجل ، وهو يحدد لنا فى آياته المحكمات ، بكل دقة ، أقل مدة للحمل .

٣ - المخاض أو الولادة:

تنتهى الحضانة الرحمية بولادة الجنين . وهنا تبرز أمامنا آية رائعة يقول فيها الحق تعالى ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴾ [عبس : ٢٠] .

ومن معانى هذه الآلية تيسير طريق الجنين لتيسير الولادة، حيث تبدو قناة الولادة - وهى فى وضعها الطبيعى - ممرا يصعب مرور الجنين منه ؛ إلا أن هناك عوامل كثيرة تسهل عملية الولادة .

واستنادا إلى المعلومات العلمية المتوفرة، فإننا نعرف الآن الدور الذى تؤديه العوامل التالية :

(أ) هورمون ريلاكسين : وهو هورمون يفرزه المبيضان والمشيمة ، ويؤدى إلى تراخى أربطة مفاصل الحوض ، وتلين عنق الرحم .

(ب) تقلصات الرحم : وهى تبدأ فى الجزء العلوى من الرحم ، الذى يتكون من نسيج العضلات المتقلصة المتحركة النشطة ، والذى يؤمن القوة اللازمة لدفع الوليد خلال الجزء السفلى الساكن الرقيق من الرحم .

(ج) أغشية السلى : وهى عبارة عن كيس الماء الأمينوسى الذى يحيط بالجنين ويسهل انزلاقه .

وتبرز هذه الأغشية الممتلئة بالسائل الأمينوسى على شكل كيس مائى من خلال عنق الرحم مع كل تقلص من تقلصاته ، وتعمل على تسهيل تمده . وتؤمن هذه الأغشية - بعد أن تتمزق - سطحا لزجا ناعما ينزلق عليه الجنين .

ميكانيزم (آلية - هندسة) المخاض

يتغير وضع الجنين عند مروره عبر تجويف الحوض الذى له شكل غير منتظم . وهذه التغيرات - التى تطرأ على الوضع العكسى - هى على سبيل المثال النزول والانشاء والدوران الداخلى والتمدد ، واسترجاع الوضع الطبيعى ، والدوران الخارجى .

وصدق الله تعالى فى قوله ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ ، فقد هيا للجنين كل هذه السبل لتسهيل مروره عبر قناة الولادة .



الخلاصة:

أى إعجاز هذا ؟

سبحانك يا الله . . تقول فى قرآنك الكريم لفظ «أنشأناه»، فإذا به يشتمل على أوضح التطورات الخارجية والداخلية فى الملامح خلال هذا الطور من أطوار التخلق البشرى .

ولقد عرفنا أن لفظ «نشأ» يعنى (بدأ) و (نما) و (ارتفع وربما)، فإذا بكل هذه المعانى تنطبق بشكل جلى مفهوم على كافة مراحل هذا الطور .

فما ورد بمعنى (بدأ) يصف لنا بداية عمل الأعضاء والأجهزة المختلفة، حيث نجد أن الكلية قد بدأت فى تكوين البول، وبدأ مخ العظام فى تكوين خلايا الدم، وبدأت حويصلات الشعر فى الظهور فى الأسبوع العاشر . الخ .

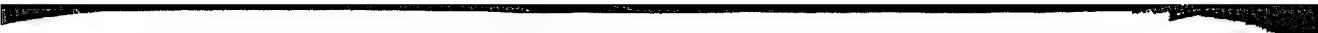
وأما معنى (نما) فإنه يبين النمو السريع والتطور الشامل فى أعضاء وأجهزة الجسم خلال هذا الطور .

وأما معنى (ارتفع وربما) فإنه يصف تلك الزيادة الواضحة والبالغة السرعة فى طول الجنين ووزنه، والتي تبدأ فى الأسبوع الثانى عشر .

وسبحانك عز من قائل، من اخترت لفظ «نشأ» لينطبق بصورة دقيقة ومناسبة للغاية على وصف مرحلة الجنين .

مسار عملية التخلق في طور النشأة

العمر بالأسابيع	الطول من الأكليل إلى الكفئ ملم	طول القدم ملم	الوزن الجنيني (جم) (ب)	الخصائص الخارجية الرئيسية
الجنين قبل أن يكون قادرا على العيش				
٩	٥٠	٧	٨	العينان مغلقتان أو أخذتان في الانغلاق. يصبح الرأس أكثر استدارة، ولا يمكن حيثل تمييز الأعضاء التناسلية الخارجية من ذكر وأنثى، وتكون الأمعاء في الحبل السرى
١٠	٦١	٩	١٤	الأمعاء في البطن. تتخلق أطراف أصابع اليدين البدائي
١٢	٧٨	١٤	٤٥	يمكن تمييز جنس الجنين من الخارج وتكون الرقبة واضحة محددة انتصاب الرأس مع تطور الطرفين السفليين بصورة جيدة
١٤	١٢٠	٢٠	١١٠	بروز الأذنين الخارجيتين من الرأس
١٦	١٤٠	٢٧	٢٠٠	وجود الطلاء الدهنى
١٨	١٦٠	٣٣	٣٢٠	(ظهور شعر الرأس والجسم الزغب)
٢٠	١٩٠	٣٩	٤٦٠	الجنين عندما يكون قابلا للحياة خارج الرحم (ج)
٢٢	٢١٠	٤٥	٦٣٠	تجمد الجلد واحمراره
٢٤	٢٣٠	٥٠	٨٢٠	وجود أطراف أصابع اليدين، ويكون الجسم نحىلا
٢٦	٢٥٠	٥٥	١٠٠٠	العينان مفتوحتان جزئيا. مع وجود الرموش
٢٨	٢٧٠	٥٩	١٣٠٠	العينان مفتوحتان، مع وجود شعر الرأس غالبا، وتجمد الجلد قليلا
٣٠	٢٨٠	٦٣	١٧٠٠	ظهور أطراف أصابع القدمين، وامتلاء الجسم، ومزول الصبوتين
٣٢	٣٠٠	٦٨	٢١٠٠	تصل أطراف أصابع اليد الأمامي، ويكون الجسم ناعما وردي اللون
٣٦	٣٤٠	٧٩	٢٩٠٠	يكون الجسم ممتلئا عادة، مع اختفاء الزغب اختفاء تاما تقريبا ونمو أطراف أصابع القدمين وانثناء الأطراف، مع قبضة قوية
٣٨	٣٦٠	٨٣	٣٤٠٠	بروز الصدر والثديين والخصيتين في الصفتين أو يمكن جسهما في القناة الأربية ونمو أطراف أصابع اليدين متجاوزة الأنامل.
(أ)	هذه القياسات متوسطة قد لا تنطبق على حالات معينة، وتزداد الاختلافات في أبعاد الجنين مع العمر			
(ب)	تشير الأوزان إلى الأجنة التي غرست لمدة أسبوعين تقريبا في عشرة من المائة من الفورمالين. وتزن العينات الجديدة عادة أقل من خمسة في المائة.			
(ج)	حد قاطع للتخلق أو العمر أو الوزن يصبح الجنين عنده قادرا على العيش أو يتأمن بقاءه بعده رهنا للتجربة على أنه ينذر بقاء الوليد إذا قل وزنه عن (٥٠٠) جم أو قل عمر إخصابه عن ٢٢ أسبوعا. أما الأجنة التي تولد بين الأسبوع ٢٦ و ٢٨ فتعيش ولكن بصعوبة لأن التمايز لم يتم تماما بين قبل جهاز التنفس والجهاز العصبي المركزى، ومصطلح إجهاض يشير إلى كل حالات الحمل التي تنتهى قبل فترة القابلية للحياة خارج الرحم.			



الفصل العاشر

إعجاز الآيات القرآنية

فى الحديث عن مراحل التخليق البشرى

بعد أن أنهت رحلتنا مع الخلق الإلهى ، لا أجد ما أقول سوى : سبحانك ربى
سبحانك ، سبحانك ما أعظم شأنك .

أى إعجاز هذا يارب يا قادر !!

منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، قرآنك الكريم يضم بين جنباته تفردا وعظمة ،
وسبقا لما اكتشفه العلم الحديث الذى لم نتوصل إلى أطرافه إلا من عشرات قليلة من
السنين ، عندما يتحدث القرآن بكل الاقتدار الإلهى عن كيفية ومراحل الخلق
البشرى .

وقبل أن تعرف الإنسانية الأجهزة والآلات المعقدة الحديثة بقرون طويلة ، وقف
القرآن شامخا ، يتحدث وحده - بكل الثقة والاقتدار ، عن مراحل الخلق البشرى ،
بأوصاف معجزة ، ومنهجية علمية ، وترتيب دقيق ، لم يتوصل البشر إلى معرفته إلا
منذ سنين قلائل .

حقا إنه كلام رب مقتدر ، وحديث خالق مبدع .

يقول جل جلاله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وذلك فى إشارة واضحة إلى
أن الناس فى زمن التنزيل لم تكن لهم معرفة بحقائق العلوم التى كشفها تعالى لنا فى
هذا العصر الراهن من معجزات فى خلق الكون والإنسان .

اللافت للنظر أن هذه العبارات التى يفهمها الناس ويتقبلونها، هى فى نفس الوقت، عبارات تحمل المعنى الأصلى المراد منها فى تعبير دقيق عن الحقيقة . فهى صيغ يسترعى انتباهنا منها أنها دقيقة جدا ومقصودة، إذ إن كلا من منها اصطلاح لا يضارعه أى اصطلاح مما قد يخطر فى بال أى عالم من علماء اللغة فى دقته ودلالته . ثم هو إلى جوار ذلك، اصطلاح جميل ورفيع، ويوحى بالسمو المعنوى إضافة إلى سمو المادى، تأنس إليه الأذن ويرتاح له الفؤاد، ويعتقد به الشخص العالم، الآن كما فى القديم .

ومعروف أن العلماء قد اتفقوا على أسس وضع المصطلحات العلمية لعلم الأجنة، بحيث يتحتم أن تكون هذه المصطلحات :

١ - واصفة للمظهر .

٢ - أن تعكس عمليات التطور التى تحدث فى كل طور وكل مرحلة .

٣ - أن تتحاشى وقوع أى تداخل أو التباس فى بداية كل مرحلة ونهايتها .

ومن خلال دراسة كل المصطلحات المتعلقة بتكوين الجنين الإنسانى فى القرآن الكريم، نجد أنها تستوفى كل الشروط الضرورية اللازمة للتسميات المثالية، إذ يبرز فيها التطابق والوضوح بالنسبة لكل مرحلة من مراحل تطور الجنين .

ولهذا السبب فإنه لا يمكن أن يعزى تفسير وصف الجنين البشرى الوارد فى القرآن الكريم إلى المعرفة العلمية التى كانت سائدة وقت نزوله فى القرن السابع الميلادى . والاستنتاج المنطقى الوحيد، والذى لا جدال فيه - فى هذا الصدد - هو أن الله سبحانه أوحى بذلك إلى رسوله صلى الله عليه وسلم النبى الأُمى الذى لم يمارس فى حياته نشاطا علميا قط فى هذا المجال أو غيره .

وبعد أن قطعنا سويا رحلتنا مع مراحل الخلق الإلهى، واحدة تلو الأخرى، فقد يكون مفيدا أن نتوقف لكى نمنع الفكر ونتدبر، كما أمرنا الله، لنرى كيف أبدعت آيات القرآن الكريم فى بيان إعجاز هذا الخلق الإلهى .

* * *

نصوص بعض الآيات

كثيرة هي الآيات (١) التي تتحدث في القرآن الكريم عن المراحل الأساسية في عمليات التطور والتخلق البشرى . لكننا نختار من بينها نصوص بعض هذه الآيات كما وردت في سبع من سور القرآن العظيم :

يقول المولى عز جلاله :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٥ - ٧]

ويقول جل جلاله :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٦]

ويقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام : ٩٨]

ويقول جل جلاله :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤]

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : ٢]

ويقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَكْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ يَمَنِى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ [القيامة : ٣٧ - ٣٩]

(١) راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب .

ويقول تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨]

ما الذى نلاحظه فى هذه الآيات؟

نلاحظ أن هذه الآيات تتحدث عن مراحل التخلق البشرى، فتجعله فى أقسام واضحة متميزة هى:

١ - مرحلة البداية: وهى تتناول المنبع الأساسى للعملية من جذورها، وهو مكان خروج الحيوانات المنوية والبيضات.

٢ و٣ - مرحلة التخلق الأولى (الحميل): وتشمل النطفة والعلقة والمضغة، وتخلق العظام، ثم كسوة العظام باللحم (العضلات).

٤ - مرحلة النشأة: وهى مرحلة تالية، فيها تنشط عمليات النمو والتشكل، ثم يحدث التطور فى المظهر الخارجى، فيتخذ الجنين شكلا بشريا مميزا ومعتدلا.

كذلك نلاحظ أن هذه الآيات تتحدث عن مراحل التخلق البشرى فى صورة مصطلحات وصفية، وفقا للمظهر الخارجى. ثم إن هذه الآيات استخدمت أفعالا وصفية لبعض أهم مراحل الخلق وأطواره.

وفيما يلى جدول توضيحى يبين العلاقة المتقابلة بين نصوص الآيات التى ذكرناها، ثم جدول يبين المعنى اللغوى لكل تعبير قرأنى وكذلك معناه الاصطلاحي:

بيان توضيحي للترابط بين الشواهد القرآنية
فيما يتعلق بالمراحل الرئيسية للتخليق البشري

المرحلة	سورة القيامة ٣٩-٣٧-٤	سورة المؤمنون ١٤-١٢	سورة الطارق ٧	سورة الأنعام ٩٨	سورة الانفطار ٨٧	سورة الإنسان ٢	سورة آل عمران ٦
١- البداية			يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ	وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْسِدٍ وَمُسْتَوْدِعٍ			
٢- النطفة	أَتَمَّ بِكَ نُطْفَةً مِنْ مِيٍّ يَمْنَى	ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ			إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ		
٣- التخليق	أ- العلقه ثُمَّ كَانَ عَاقِلَةً فَخَلَقَ	ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ عِظَامًا			الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّكَ		
٤- الشاة	ب- المضغة ج- العظام د- الكساء باللحم	فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا			فَعَدَلْنَا فِي أَيْ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَبِّكَ	هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ	

كلمات القرآن فى وصف مراحل التخليق البشرى

معانيها اللغوية والاصطلاحية

التعبير القرآنى	المعنى اللغوى	المعنى الاصطلاحى
النطفة	١ - المويهة ٢ - القطرة من الماء	الحيوان المنوى أو البيضة
النطفة الأمشاج	الأمشاج : الأخلاط	البيضة المخصبة
العلقة	١ - الخثرة من الدم ٢ - دودة العلقه ٣ - كل ما يعلق	مرحلة مخصوصة من الجنين (تالية)
المضغة	ما يمضغ من الطعام كاللحم ونحوه	مرحلة مخصوصة من الجنين (تالية)
البنان	أطراف الأصابع	إشارة إلى بصمة البنان التى تميز كل إنسان عن سواه
المستقر	محل الاستقرار	الرحم
المستودع	محل الاستيداع والخزن	الخصيتان والمبيضان
الصلب	فقرات من الظهر	كروموسومات جسمية
الترائب	أضلاع من الصدر	كروموسومات جنسية

وقفة للتحليل العلمى والتحليل الموضوعى:

نحن الآن أمام نصوص تتولى وصف مراحل التخلق البشرى، سواء من خلال الاسم أو الفعل. وهى نصوص تتفق سويا عند الإشارة إلى أى مرحلة، ولا تختلف حولها مطلقا وهى نصوص تحتوى على حروف عطف تتولى الإشارة إلى المدة الزمنية وتتابع الأحداث.

هذا ما تنطوى عليه هذه الآيات، وهذا ما نعرض له بشئ من الاستفاضة، فى هذه الوقفة التحليلية، علميا وموضوعيا.

أولا : أهمية حروف وأدوات العطف:

هذه الحروف والأدوات تستخدم للدلالة على تتابع التغير فى الشكل أو فى تتابع الأحداث. وأداة العطف (ثم) فى العربية تدل على وجود فاصل زمنى بين حدثين، بينما يدل حرف (الفاء) على أن الأحداث تتوالى فورا دون فاصل زمنى.

تطبيقا لذلك على سورتي «المؤمنون» و «القيامة»، نجد أن أداة العطف (ثم) جاءت لتدل على التسلسل البطيء بين مصطلحي النطفة والعلقة، بينما ورد حرف (الفاء) للدلالة على الترتيب المتتابع السريع فى مراحل الجنين المذكورة فى السورتين.

ثانيا: النطفة والعلقة:

تتوافقان فى التسلسل البطيء، حيث ورد بينهما حرف العطف (ثم) فى نفس السورتين.

ثالثا : المضغة:

فى سورة (المؤمنون) وردت كلمة «مضغة» لوصف المرحلة الثانية وبيان شكل الجنين فيها. وفى سورة (القيامة) ورد فعل «خلق»

. ومن بين معانيه - وهو المقصود هنا - إنشاء شىء من شىء آخر . وعليه فإن هذا الفعل جاء هنا ليدل على التحول من مرحلة «العلاقة» إلى مرحلة جديدة هي «المضغة» . وإذا كان المفهوم من كلمة «خلق» هنا أنها تقترب بعملية تخلق متميزة، فإن علم الأجنة يقر بأن بدايات الأجهزة المختلفة تبدأ خلال مرحلة «المضغة»، وأن عملية «الخلق» سمة خاصة لمرحلة «المضغة» .

وحيث إن المظهر الخارجى للجنين يتغير بالتغيرات التى تقع فى داخله، فإن فعل (سوى) [الذى يعنى قوم وجعل الشىء مستويا بدون ارتفاع وانخفاض] يدل على أن مرحلة «المضغة» قد انتهت . وهذا أمر منطقي لأن «المضغة» غير مسواة ولا تحوى عظاما أو عضلات، وبالتالي فليس لها مظهر بشرى .

وعليه فإن مرحلة «التسوية» المذكورة فى سورتي (القيامة) و (الانفطار)، والتي يكون فيها السطح الخارجى للجنين سويا دون تعرجات، تأتى بعد مرحلة «المضغة»، وتليها مباشرة .

وفى سورة (الحج) وصف للمضغة بأنها «مخلقة وغير مخلقة»، وعليه فإن بدء عملية تخلق الأجهزة المختلفة للجنين صفة بارزة لما قبل التسوية .

وبمقارنة ماورد فى سورتي (القيامة) و (الانفطار) نجد أن الخلق والتسوية يتعاقبان على نحو متسق فيهما .

رابعاً : العظام:

يتضح من سورة (الانفطار) أن مرحلة التعديل تلى طور التسوية . ويقع التعديل باقتراب الجنين من المظهر البشرى الذى لا يمكن أن يحدث فى مرحلة العظام . وعليه نخلص إلى أن مرحلة التعديل تبدأ مع بدء مرحلة التكسية باللحم (تكوين العضلات) التى تلى مرحلة العظام (التسوية) .

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة «عظام» للدلالة على الشكل فى المقام الأول، والفعل «سوى» لوصف وقوع حدث؛ حيث يشتمل هذا الفعل على المعانى التالية:

جعل الجنين قائما مستقيما بعد انحناء كان يشبه فيه حرف (c) بالإنجليزية .
إعداد الأعضاء وجعلها ملائمة لأداء وظائفها .
تسوية سطح جسم الجنين وجعله ناعما بلا تعرجات .

خامسا : الكساء باللحم :

تتفق بداية مرحلة الكساء باللحم في سورة (المؤمنون) مع بداية مرحلة التعديل في سورة (الانفطار) . كما تتفق مع الآية (٣٩) من سورة (القيامة) . ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ أى أن بداية التذكير والتأنيث في سورة (القيامة) تتفق مع طور الكساء باللحم في سورة (المؤمنون) .
وهذا هو ما يقع فعلا ، حيث يحدث تمايز للحدبة التناسلية ، وتأخذ شكل المبيض أو الخصية في هذه المرحلة .

سادسا : النشأة :

في سورة (المؤمنون) استعمل حرف العطف (ثم) بين مرحلتى الكساء باللحم والنشأة . ولكن سورتي (القيامة) و(الانفطار) لا تذكران هذه المرحلة . ويدل ذلك على أن عملية التذكير والتأنيث تستمر حتى تكتمل ، وهو ما يحدث فعلا ، ويتم تمايز الأعضاء التناسلية الخارجية بين الأسبوعين الحادى عشر والثانى عشر ، وبالمثل تستمر عملية تعديل الأعضاء وتحديد ملامح الصورة البشرية حتى مرحلة متأخرة من الحمل .

ولأن هذه العمليات تستغرق فترة زمنية طويلة ، فقد ختمت بها الآيات في سورتي (القيامة) و(الانفطار) ، لتعبر عن الزمن الطويل الذى تحتاجه هذه المرحلة . أما سورة (المؤمنون) فقد ذكرت فعلين متمايزين هما «الكساء باللحم» و«النشأة خلقا آخر» ، فى نفس الزمن الذى تستغرقه الأحداث فى سورتي (الانفطار) و(القيامة) .



خلاصة الوقفة التحليلية :

بعد هذه المقارنات والتحليلات تبرز أمامنا النتائج التالية :

- ١ - اكتمال وصف كل مرحلة من المراحل ، مظهرا وحدثا ، من خلال الاسم الدال على مظهر خارجي ، سورة (المؤمنون) ، أو من خلال الفعل الدال على ما يحدث من عمليات داخلية ، سورتي (الانفطار) و (القيامة) .
- ٢ - تتوافق النصوص توافقا دقيقا عند الإشارة إلى المراحل المختلفة ، سواء ذكر الاسم أو الحدث في تلك الإشارة .
- ٣ - إشارة حروف العطف إلى المدة الزمنية التي يستغرقها الحدث ، من حيث طول الزمن أو قصره ، كما أكدت التوافق بين الآيات المختلفة ، بالإضافة إلى دلالتها على زمن تتابع الأحداث .

الخلاصة :

بكل الخشوع والإجلال ، نقف أمام المصطلحات الواردة في القرآن الكريم ، والتي جاءت معبرة بكل دقة عن التطورات التي تقع في المراحل المختلفة للتخلق . فهي تصف هذه الأحداث حسب تسلسلها الزمني ، كما تصف المتغيرات التي تطرأ على هيئة الجنين مع التخلق في كل مرحلة وصفا دقيقا .

وما كان في وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرف هذه الحقائق عن التخلق البشري في القرن السابع الميلادي ، وقت نزول القرآن الكريم على قلبه الشريف ، لأن معظمها لم يكتشف إلا في القرن العشرين^(١) .

وحتى تكتمل الوقفة التحليلية والموضوعية والعلمية ، فإننا ننتقل إلى بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، نستزيد منها استيضاحا .

(١) من بين النماذج البارزة في هذا المجال تعبير (النطفة الأمشاج) وهي النطفة الناتجة عن اتحاد نطفة الذكر (الحيمن) بنطفة الأنثى (الببيضة) . فلقد أسمى علماء الطب الحديث النطفة الناتجة عن هذا الاتحاد «الببيضة المخصبة» . جاء في كتاب (تشریح جرای) ، وهو أشهر مرجع في علم التشریح ، أنه يبدو من اصطلاح الببيضة المخصبة هذا وكأن بببيضة الأنثى هي الأصل وأن الحيمن لا يلعب إلا دورا هامشيا أي دورا محفزا وحسب في تكوينها ، ولهذا فإن المرجع قد اعتبر (الببيضة المخصبة) اصطلاحا مضللا غير مرغوب فيه . فلننظر هنا ، مرة أخرى ، إلى عبارة (النطفة الأمشاج) ، تعبيرا قرآنيا ، لا يدانيه أي مصطلح وضعي ، في دلالته على شركة متساوية للذكر والأنثى في تكوين المخلوق الجديد . إن (النطفة الأمشاج) سوف تبقى أعلى وأرقى وأبلغ في الدلالة عما يتداوله العلماء والأطباء في قولهم (الببيضة المخصبة) .

الفصل الحادى عشر

الأحاديث النبوية الشريفة

ومراحل الخلق فى الأيام الأربعين الأولى

تمهيد

عندما يتحدث الرسول ، عليه صلوات الله وسلامه ، فإنه لا ينطق عن الهوى . وعندما يكون حديثه الشريف عن الحمل ومراحله ، وهو النبى الأُمى ، فلا بد من وقفة نتفحص فيها كلامه العلمى الدقيق ، لأنه لا ينطق عن الهوى ؛ ولأنه يصدر عن وحي يوحى إليه من رب السماء والأرض .

ولذلك لم يكن غريبا ولا عجيبا أن يتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم فى وصف هيئة الجنين فى الأربعين يوما الأولى ، ثم عن حالته بعد ذلك ؛ محددا معالم كل فترة وتفصيلها الدقيقة .

وقد كانت لبعض علماء المسلمين آراء فى تأويل هذه الأحاديث ، وهذا ما ستعرض له كله .

الأربعون يوما الأولى

وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حالة الحمل في الأربعين يوما الأولى ،
فيما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو الصادق الصدوق ، قال :

(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون في ذلك علقة مثل
ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر
بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد)^(١) .

نخرج من هذا الحديث بحقيقتين أساسيتين :

الأولى : أن جمع خلق الإنسان يتم في الأربعين يوما الأولى .

الثانية : أن مراحل الخلق الأولى وهى : النطفة والعلقة والمضغة إنما تتكون
وتكتمل خلال هذه الفترة ، وهى الأربعون يوما الأولى .

جمع الخلق (المراحل الجنينية الأولى)

هذا الوصف المحكم لحالة الجنين خلال الأربعين يوما الأولى ؛ جاء علم الأجنة
الحديث ليقرر كل ما جاء فيه . ففي الأسبوع الخامس يكون جسم الحمل مقوسا شبه
دائرى ، ولا يزيد طوله عن سنتيمتر واحد تقريبا ، ويكون نصفه العلوى ثلثى طول
جسمه الكلى ، ويكتسب في هذا الوقت براعم أطرافه ، ويكون له ما يشبه الذيل ،
وقلبه في مرحلة بدائية جدا ويخفق بصورة منتظمة .

وتظهر الأطراف العلوية في الأسبوع الرابع ، ويكون شكلها في بداية الأسبوع
الخامس متميزا كشكل المجذاف . ولكن هذه الأطراف العلوية تتطور في نهاية
الأسبوع الخامس ، وتشاهد عليها صفائح مبتورة لليد ، وإشعاعات إصبعية .

(١) جاء هذا الحديث في صحيح البخارى بدون لفظ (في ذلك) .

وعند نهاية الأسبوع السادس، وقبل اليوم الثانى والأربعين، لا تكون صورة الوجه واضحة أو شبيهة بصورة الإنسان.

وتكون العين والأذن والأعضاء التناسلية الخارجية فى صورة أولية من مراحل تطورها قبل اليوم الأربعين، وهى لا تعمل ولا تشبه أعضاء الإنسان، ومع ذلك فإن العين تبدأ تطورها خلال الأسبوع الرابع مع تولد الحويصلة العينية التى تتغلف لتولد الكأس البصرى، ويحفز هذا تكون العدسة قبل نهاية الأسبوع الخامس. ويتم بعد ذلك تمييز الشبكية، وظهور الألياف البصرية التى تصل الدماغ لتكوّن التقاطع البصرى.

وتبدأ الأذن الداخلية تطورها، فى بداية الأسبوع الخامس، كصفحة ثخينة من الأديم الظاهر مكونة الصفيحة الأذنية التى سرعان ما تغطس تحت سطح الصماخ السمعى الظاهر لتكوّن الحويصلة الأذنية التى تفقد اتصالها مع السطح لتولد الأذن الداخلية، ولا يكون للأذن فى هذه المراحل الأولية شكل أذن الإنسان.

يتفق هذا الوصف لتطور الحميل مع تعبير (يجمع خلقه) الواردة فى الحديث النبوى الشريف ليصف المظهر الخارجى المتقوس المتجمع، وكذلك الناحية التشريحية الداخلية، حيث تكون الأجهزة والأعضاء متجمعة فى حالتها الابتدائية وهى فى كتلة صغيرة، فيكون الوصف (يجمع خلقه) معبرا عن الناحية التشريحية بدقة.

اختلاف فى فهم الحديث النبوى

فى محاولة فهم الحديث النبوى الشريف السالف ذكره، وقع خلاف بين علماء المسلمين القدامى فى تحديد مدة النطفة والعلقه والمضغة، هل هى أربعون يوما لكل منها، أم أربعون يوما لها جميعا.

فسر بعض هؤلاء العلماء هذا الحديث على أنه يعنى أن النطفة والعلقه والمضغة تتم على التوالى فى فترات طول كل منها أربعون يوما. وفهموا أن عبارة (مثل ذلك) تشير إلى الفترة الزمنية (أربعون يوما) واستنتجوا من ذلك أن المضغة لا تتم إلا بعد (١٢٠) يوما.

وهذا القول غير صحيح ، لما أتى :

١ - يختلف نص الحديث فى رواية مسلم عن البخارى ، من حيث إن رواية مسلم تزيد لفظ (فى ذلك) فى موضعين قبل لفظ (علقة) ولفظ (مضغة) . وهى زيادة صحيحة تعد من أصل المتن جمعا بين الروايات .

٢ - إذا كان القرآن الكريم قد ذكر أن العظام تتكون بعد مرحلة المضغة ، ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد حدد فى حديث حذيفة أن بدء تخلق العظام يكون بعد الليلة الثالثة والأربعين من بدء تكون النطفة (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث إليها ملك . .) .

وإذن فالقول بأن العظام يبدأ تخليقها بعد مائة وعشرين يوما يتعارض تعارضا بينا مع ظاهر الحديث الذى رواه حذيفة .

٣ - أثبتت الدراسات الحديثة فى علم الأجنة أن تكون العظام يبدأ بعد الأسبوع السادس مباشرة ، وليس بعد الأسبوع السابع عشر .

وعلى هذا يتضح أن معنى تعبير (مثل ذلك) - فى حديث ابن مسعود - لا يمكن أن يكون مثله فى الأربعينات من الأيام .

وإنما يكون معنى الحديث (إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك - أى فى ذلك العدد من الأيام - علقه (مجتمعة فى خلقها) مثل ذلك (أى مثلما اجتمع خلقكم فى الأربعين يوما) وقوله (ثم يكون علقه مثل ذلك) معناه أنه يكون فى الأربعين المذكورة علقه تامة الخلق ، متقنة محكمة ، الإحكام الممكن لها ، واللائق بنعمة الله سبحانه وتعالى .

بيان الإعجاز فى الأربعين يوما الأولى :

١ - جمع خلق الإنسان :

ظاهر من الحديث الشريف أن خلق الإنسان (يجمع) فى أربعين يوما .

ويقرر الأطباء - بعد رحلة طويلة من الدراسات والتشريح الدقيق لجسم الجنين فى الأيام الأربعين الأولى ، أن جميع الأعضاء الرئيسية للإنسان ، تتخلق واحدا بعد الآخر ، فلا تمر الأربعون يوما الأولى إلا وقد اجتمعت جميع الأجهزة ، ولكن فى صورة براعم .

وتكون مجموعة فى حيز لا يزيد عن سنتيمتر .
كما يكون الجنين مجموعا حول نفسه بالتفاف فى شكل قوس ، أو ما يشبه حرف
(C) بالإنجليزية .

٢ - ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك :

ويقرر العلم الحديث أن الجنين - فيما بين اليوم الخامس عشر إلى اليوم الرابع
والعشرين - يأخذ صورة العلقه التى تسبح فى البرك ، وتعلق بالمشيمة .

٣ - ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك :

وهذا إعجاز آخر فى دقة الاسم الذى أطلقه القرآن الكريم والأحاديث النبوية
على المرحلة التالية لمرحلة العلقه وهو المضغة ؛ حيث تتطور المضغة تدريجيا فتأخذ
شكل المضغة المستديرة المميزة بعلامات تشبه طبع الأسنان عليها ، وبسطح غير
منتظم .

وكما علمنا من قبل فإن الأعضاء الأساسية فى الداخل تبدأ فى التمايز وتنتج
الفراغات بين الكتل شكلا أشبه بالمادة المضغوطة ، وبالتدريج يأخذ الجنين شكل
المضغة .

٤ - يدل الحديث على أن مراحل النطفة والعلقه والمضغة تتم خلال الأربعين
يوما الأولى ، بالرغم من أن حجم الجنين فى هذه الفترة يكون صغيرا جدا ، وأن
الفترة الزمنية بين هذه المراحل قصيرة .

وقد كان تقدير عمر الجنين أمرا بالغ الصعوبة قبل اكتشاف البيضة وارتباط دورة
الحيض بها . كما أن التحديد حينئذ كان عرضة للخطأ بزيادة أو نقص فى تقدير عمر
الجنين يصل إلى واحد وعشرين يوما ، لأن الذى يقدر العمر لا يعلم متى بدأ العمل
من أول الشهر أم من آخره . ثم إن كل هذه الأطوار للنطفة والعلقه والمضغة ، التى
ذكرها القرآن الكريم لم تكن معروفة أصلا فى تلك الأيام .

ولا مجال للعجب ، فهذا - كما قلنا - حديث رسول كريم ، لا ينطق عن الهوى ،
وإنما هو وحى يوحى إليه من رب السماء والأرض .



خاتمة

الحمد لله رب العالمين..

بحمد الله أختتم كتابي، بعد أن بدأت به باسم الله..

الحمد لله أن وفقني إلى طريق الإيمان به، بعد أن وفقني - بنعمته - إلى طريق العلم الحديث.. فكان هذا الكتاب إحدى محاولات التعبير عن الشكر والامتنان للخالق الواحد المنان.

وبعد . . فيا قارئ العزيز . .

لقد انتهت رحلتنا سويا عبر إعجاز الخالق سبحانه في إبداع الخلق البشري، مرحلة مرحلة، وطورا بعد طور، ومع بلاغة آيات القرآن في بيان هذا الإبداع والإعجاز.

وليس لدى من كلمات أضيفها فوق ما قلت ؛ سوى أن أسألك يارب الرضى . .
فقد كان رضاك هو الهدف والمبتغى .

والحمد لله رب العالمين..

د. محمد فياض

أهم المراجع

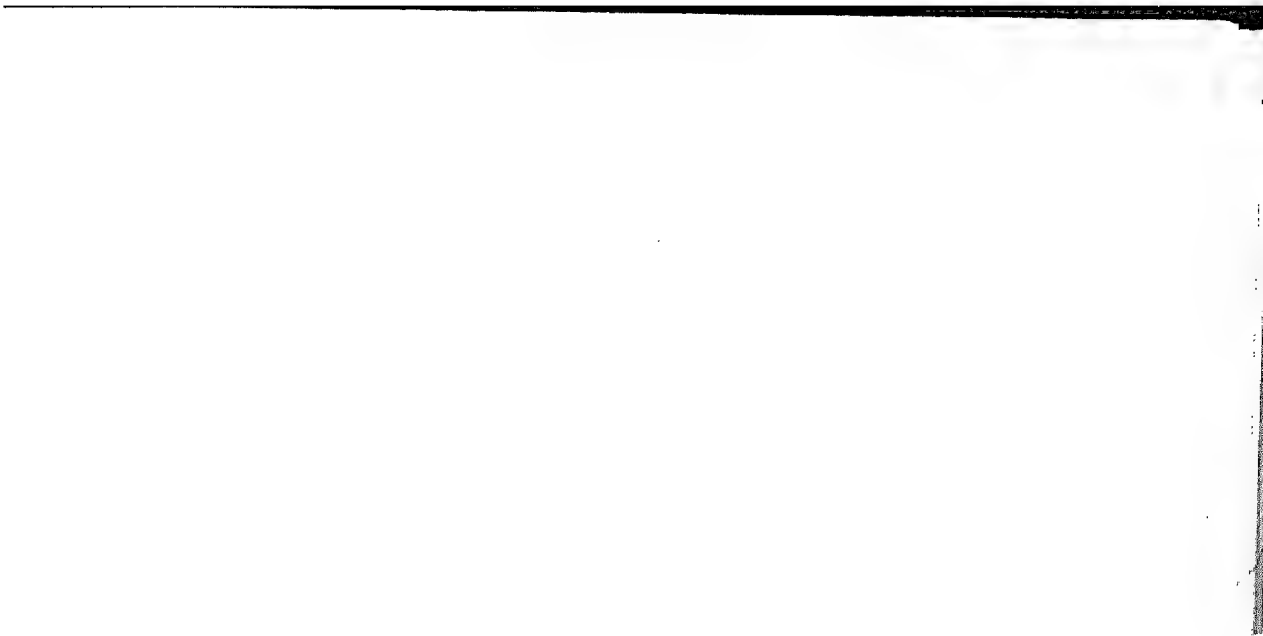
- * القرآن الكريم .
- * الجامع لأحكام القرآن - لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى - مطبعة دار الكتب ، ١٣٥٤هـ .
- * فتح البارى بشرح صحيح البخارى - لابن حجر العسقلانى - المطبعة البهية المصرية ، ١٣٤٨هـ .
- * علم الأجنة فى ضوء القرآن الكريم - هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم - رابطة العالم الإسلامى - مكة المكرمة .
- * أسرار خلق الإنسان - العجائب فى الصلب والثرائب - الدكتور داود سلمان السعدى - دار الحرف العربى - بيروت - لبنان ، ١٩٩٤ .
- * خلق الإنسان - دراسة علمية وقرآنية - الجزء الأول - من سلالة من طين - الدكتور عبد الفتاح محمد طيره - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ .
- * أطوار الخلق فى تاريخ الإنسان - سلسلة القرآن والعلم - الكتاب الأول - الدكتور أحمد شوقى .
- * خلق الإنسان بين الطب والقرآن - الدكتور محمد على البار - الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٥٥ .
- * حياة آدم - محمود شلبى - دار الجبل - بيروت - لبنان ، ١٩٩٢ .
- * الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل - الدكتور محمد وصفى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ١٩٦٥ .
- * رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى - الدكتور محمد رأفت عيمان .
- * فن الولادة فى مصر القديمة - الدكتور محمد فياض - دار الشروق ، ١٩٩٥ .



11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204
205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223
224
225
226
227
228
229
230
231
232
233
234
235
236
237
238
239
240
241
242
243
244
245
246
247
248
249
250
251
252
253
254
255
256
257
258
259
260
261
262
263
264
265
266
267
268
269
270
271
272
273
274
275
276
277
278
279
280
281
282
283
284
285
286
287
288
289
290
291
292
293
294
295
296
297
298
299
300
301
302
303
304
305
306
307
308
309
310
311
312
313
314
315
316
317
318
319
320
321
322
323
324
325
326
327
328
329
330
331
332
333
334
335
336
337
338
339
340
341
342
343
344
345
346
347
348
349
350
351
352
353
354
355
356
357
358
359
360
361
362
363
364
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
841
842
843
844
845
846
847
848
849
850
851
852
853
854
855
856
857
858
859
860
861
862
863
864
865
866
867
868
869
870
871
872
873
874
875
876
877
878
879
880
881
882
883
884
885
886
887
888
889
890
891
892
893
894
895
896
897
898
899
900
901
902
903
904
905
906
907
908
909
910
911
912
913
914
915
916
917
918
919
920
921
922
923
924
925
926
927
928
929
930
931
932
933
934
935
936
937
938
939
940
941
942
943
944
945
946
947
948
949
950
951
952
953
954
955
956
957
958
959
960
961
962
963
964
965
966
967
968
969
970
971
972
973
974
975
976
977
978
979
980
981
982
983
984
985
986
987
988
989
990
991
992
993
994
995
996
997
998
999
1000
1001
1002
1003
1004
1005
1006
1007
1008
1009
1010
1011
1012
1013
1014
1015
1016
1017
1018
1019
1020
1021
1022
1023
1024
1025
1026
1027
1028
1029
1030
1031
1032
1033
1034
1035
1036
1037
1038
1039
1040
1041
1042
1043
1044
1045
1046
1047
1048
1049
1050
1051
1052
1053
1054
1055
1056
1057
1058
1059
1060
1061
1062
1063
1064
1065
1066
1067
1068
1069
1070
1071
1072
1073
1074
1075
1076
1077
1078
1079
1080
1081
1082
1083
1084
1085
1086
1087
1088
1089
1090
1091
1092
1093
1094
1095
1096
1097
1098
1099
1100
1101
1102
1103
1104
1105
1106
1107
1108
1109
1110
1111
1112
1113
1114
1115
1116
1117
1118
1119
1120
1121
1122
1123
1124
1125
1126
1127
1128
1129
1130
1131
1132
1133
1134
1135
1136
1137
1138
1139
1140
1141
1142
1143
1144
1145
1146
1147
1148
1149
1150
1151
1152
1153
1154
1155
1156
1157
1158
1159
1160
1161
1162
1163
1164
1165
1166
1167
1168
1169
1170
1171
1172
1173
1174
1175
1176
1177
1178
1179
1180
1181
1182
1183
1184
1185
1186
1187
1188
1189
1190
1191
1192
1193
1194
1195
1196
1197
1198
1199
1200
1201
1202
1203
1204
1205
1206
1207
1208
1209
1210
1211
1212
1213
1214
1215
1216
1217
1218
1219
1220
1221
1222
1223
1224
1225
1226
1227
1228
1229
1230
1231
1232
1233
1234
1235
1236
1237
1238
1239
1240
1241
1242
1243
1244
1245
1246
1247
1248
1249
1250
1251
1252
1253
1254
1255
1256
1257
1258
1259
1260
1261
1262
1263
1264
1265
1266
1267
1268
1269
1270
1271
1272
1273
1274
1275
1276
1277
1278
1279
1280
1281
1282
1283
1284
1285
1286
1287
1288
1289
1290
1291
1292
1293
1294
1295
1296
1297
1298
1299
1300
1301
1302
1303
1304
1305
1306
1307
1308
1309
1310
1311
1312
1313
1314
1315
1316
1317
1318
1319
1320
1321
1322
1323
1324
1325
1326
1327
1328
1329
1330
1331
1332
1333
1334
1335
1336
1337
1338
1339
1340
1341
1342
1343
1344
1345
1346
1347
1348
1349
1350
1351
1352
1353
1354
1355
1356
1357
1358
1359
1360
1361
1362
1363
1364
1365
1366
1367
1368
1369
1370
1371
1372
1373
1374
1375
1376
1377
1378
1379
1380
1381
1382
1383
1384
1385
1386
1387
1388
1389
1390
1391
1392
1393
1394
1395
1396
1397
1398
1399
1400
1401
1402
1403
1404
1405
1406
1407
1408
1409
1410
1411
1412
1413
1414
1415
1416
1417
1418
1419
1420
1421
1422
1423
1424
1425
1426
1427
1428
1429
1430
1431
1432
1433
1434
1435
1436
1437
1438
1439
1440
1441
1442
1443
1444
1445
1446
1447
1448
1449
1450
1451
1452
1453
1454
1455
1456
1457
1458
1459
1460
1461
1462
1463
1464
1465
1466
1467
1468
1469
1470
1471
1472
1473
1474
1475
1476
1477
1478
1479
1480
1481
1482
1483
1484
1485
1486
1487
1488
1489
1490
1491
1492
1493
1494
1495
1496
1497
1498
1499
1500
1501
1502
1503
1504
1505
1506
1507
1508
1509
1510
1511
1512
1513
1514
1515
1516
1517
1518
1519
1520
1521
1522
1523
1524
1525
1526
1527
1528
1529
1530
1531
1532
1533
1534
1535
1536
1537
1538
1539
1540
1541
1542
1543
1544
1545
1546
1547
1548
1549
1550
1551
1552
1553
1554
1555
1556
1557
1558
1559
1560
1561
1562
1563
1564
1565
1566
1567
1568
1569
1570
1571
1572
1573
1574
1575
1576
1577
1578
1579
1580
1581
1582
1583
1584
1585
1586
1587
1588
1589
1590
1591
1592
1593
1594
1595
1596
1597
1598
1599
1600
1601
1602
1603
1604
1605
1606
1607
1608
1609
1610
1611
1612
1613
1614
1615
1616
1617
1618
1619
1620
1621
1622
1623
1624
1625
1626
1627
1628
1629
1630
1631
1632
1633
1634
1635
1636
1637
1638
1639
1640
1641
1642
1643
1644
1645
1646
1647
1648
1649
1650
1651
1652
1653
1654
1655
1656
1657
1658
1659
1660
1661
1662
1663
1664
1665
1666
1667
1668
1669
1670
1671
1672
1673
1674
1675
1676
1677
1678
1679
1680
1681
1682
1683
1684
1685
1686
1687
1688
1689
1690
1691
1692
1693
1694
1695
1696
1697
1698
1699
1700
1701
1702
1703
1704
1705
1706
1707
1708
1709
1710
1711
1712
1713
1714
1715
1716
1717
1718
1719
1720
1721
1722
1723
1724
1725
1726
1727
1728
1729
1730
1731
1732
1733
1734
1735
1736
1737
1738
1739
1740
1741
1742
1743
1744
1745
1746
1747
1748
1749
1750
1751
1752
1753
1754
1755
1756
1757
1758
1759
1760
1761
1762
1763
1764
1765
1766
1767
1768
1769
1770
1771
1772
1773
1774
1775
1776
1777
1778
1779
1780
1781
1782
1783
1784
1785
1786
1787
1788
1789
1790
1791
1792
1793
1794
1795
1796
1797
1798
1799
1800
1801
1802
1803
1804
1805
1806
1807
1808
1809
1810
1811
1812
1813
1814
1815
1816
1817
1818
1819
1820
1821
1822
1823
1824
1825
1826
1827
1828
1829
1830
1831
1832
1833
1834
1835
1836
1837
1838
1839
1840
1841
1842
1843
1844
1845
1846
1847
1848
1849
1850
1851
1852
1853
1854
1855
1856
1857
1858
1859
1860
1861
1862
1863
1864
1865
1866
1867
1868
1869
1870
1871
1872
1873
1874
1875
1876
1877
1878
1879
1880
1881
1882
1883
1884
1885
1886
1887
1888
1889
1890
1891
1892
1893
1894
1895
1896
1897
1898
1899
1900
1901
1902
1903
1904
1905
1906
1907
1908
1909
1910
1911
1912
1913
1914
1915
1916
1917
1918
1919
1920
1921
1922
1923
1924
1925
1926
1927
1928
1929
1930
1931
1932
1933
1934
1935
1936
1937
1938
1939
1940
1941
1942
1943
1944
1945
1946
1947
1948
1949
1950
1951
1952
1953
1954
1955
1956
1957
1958
1959
1960
1961
1962
1963
1964
1965
1966
1967
1968
1969
1970
1971
1972
1973
1974
1975
1976
1977
1978
1979
1980
1981
1982
1983
1984
1985
1986
1987
1988
1989
1990
1991
1992
1993
1994
1995
1996
1997
1998
1999
2000
2001
2002
2003
2004
2005
2006
2007
2008
2009
2010
2011
2012
2013
2014
2015
2016
2017
2018
2019
2020
2021
2022
2023
2024
2025
2026
2027
2028
2029
2030
2031
2032
2033
2034
2035
2036
2037
2038
2039
2040
2041
2042
2043
2044
2045
2046
2047
2048
2049
2050
2051
2052
2053
2054
2055
2056
2057
2058
2059
2060
2061
2062
2063
2064
2065
2066
2067
2068
2069
2070
2071
2072
2073
2074
2075
2076
2077
2078
2079
2080
2081
2082
2083
2084
2085
2086
2087
2088
2089
2090
2091
2092
2093
2094
2095
2096
2097
2098
2099
2100
2101
2102
2103
2104
2105
2106
2107
2108
2109
2110
2111
2112
2113
2114
2115
2116
2117
2118
2119
2120
2121
2122
2123
2124
2125
2126
2127
2128
2129
2130
2131
2132
2133
2134
2135
2136
2137
2138
2139
2140
2141
2142
2143
2144
2145
2146
2147
2148
2149
2150
2151
2152
2153
2154
2155
2156
2157
2158
2159
2160
2161
2162
2163
2164
2165
2166
2167
2168
2169
2170
2171
2172
2173
2174
2175
2176
2177
2178
2179
2180
2181
2182
2183
2184
2185
2186
2187
2188
2189
2190
2191
2192
2193
2194
2195
2196
2197
2198
2199
2200
2201
2202
2203
2204
2205
2206
2207
2208
2209
2210
2211
2212
2213
2214
2215
2216
2217
2218
2219
2220
2221
2222
2223
2224
2225
2226
2227
2228
2229
2230
2231
2232
2233
2234
2235
2236
2237
2238

فهرس

١١ تقديم :
١٣ الفصل الأول : بداية خلق الكون وخلق آدم وحواء
٢٣ الفصل الثانى : تاريخ علم الأجنة
٣٥ الفصل الثالث : آيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية تتحدث عن مراحل التخليق البشرى
٤١ الفصل الرابع : مراحل الخلق كما وردت فى القرآن الكريم
٤٧ الفصل الخامس : الطور الأول- البداية
٦١ الفصل السادس : الطور الثانى- مرحلة النطفة
٨٥ الفصل السابع : التخليق- الطور الثالث- مرحلتا العلقه والمضغة
٩٧ الفصل الثامن : الطور الرابع- مرحلتا العظام واللحم
١٠٧ الفصل التاسع : الطور الخامس- النشأة
١١٩ الفصل العاشر : إعجاز الآيات القرآنية فى الحديث عن مراحل التخليق البشرى
١٣١ الفصل الحادى عشر : الأحاديث النبوية الشريفة ومراحل الخلق فى الأيام الأربعين الأولى
١٣٧ خاتمة :
١٣٩ أهم المراجع



رقم الإيداع ٩٩/٤٧٦٠

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-(09-0538-0)

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيدي بيه المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)



إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان

الدكتور محمد فياض، مؤلف هذا الكتاب، حباه الله بنعمة كبرى
طبيباً للنساء والحمل والولادة، يعايش في كل يوم - بل كل لحظة - إبداع
الخالق سبحانه وتعالى في معجزة الخلق البشري، فتعوده المرأة وقد بدأ
حملها، وبالأجهزة الحديثة والعلم المتقدم، يتابع مسيرتها حتى تضع وليدها،
ويراقب تطورات الحمل لديها وجنينها ينمو من نقطة فعلة فمضغة
فعظام، حتى ينشأ نشأة بشرية خالصة، ومع كل مرحلة من مراحل
هذا الحمل تتجلى قدرة الخالق جل جلاله، وإعجازه البالغ،
وهو يوالى تصوير وتقويم الجنين الصغير حتى
يكتمل إنساناً له كل
مقومات الحياة.

